وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس
كلية الأدب والفنون قسم الأدب العربي
مستغانم

# الرسول الكريم في كتابات ليون تولستوي

مذكرة تدخل ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر في الأدب العربي تخصص:
الدراسات الأدبية المقارنة

إعداد الطالبة :
شعشوع مليكة

تحت إشراف الأستاذ:
الدكتور مكروم

السنة الجامعية: 2015 -2016

# إهـــــــداء

إلى كل من علمني حرفا في هذه الحياة.

إلى كل من ساعدني في انجاز هذا العمل المتواضع ولو بكلمة طيبة.

# الـمقدمة

تمـر الايـام و الأعـوام مـرّ السـحاب، طامسـه بأقـدامها رسـوم الأجيـال الماضـية، و النـاس مـا هـو عليـه مـن قطـرتهم الأصـلية مستسـلمون لمـا ورثـوه عـن آبـائهم مـن التقاليـد و العـادات مذمـة كانـت أو مرضية، فاسدة أم صحيحة.

ويظلـون كـذلك لا يفقهـون معنـا لمـا يرونـه مـن المرئيـات و لا يحركـون سـاكنا لمـا يمـر علـيهم بمـن يمـيط اللسـان عـن سـرّ مـا جهلـوه، و يكشـف لهـم السـتار عـن كثـره ملـم يتحقـق فينـبهم مـن رقـدتهم و يرشدهم إلى ما كانوا عنه غافلين.

أولائـك هـم أصـحاب العلـم و رسـل التهـذيب، ومهـبط المدينـة، ونـور العرفـان، بهـم تهتـدي الأمـم، و علـى يـدهم يـتم إصـلاح الجماعـات و نظـام الشـعوب، غـير أن الـدّهر و هـو بخيـل بأمثـال هـؤلاء الأقطـاب لا يكـاد يجـود بفـرد مـنهم علـى رأس كـل جيـل حـتى تنصـب عليـه سـهام اللعنـات مـن كـل صـوب، وتتلقـاه النـاس بالعـداوة و البغضـاء السـبب واضـح " جلـي" النـاس إذا اسـتلمت مـدة مـن الزمـان إلى بعـض العـادات الفاسـدة و توارثـت طـوال الأجيـال العاهـات و الأمـراض النفسـية بعضـها عـن بعـض، تصـبح بيـنهم مـن الصـفات اللازمـة و لا ينصـرون إليهـا كعاهـات و أمـراض، بـل يختبرونهـا كخـلال طبيعـة أنزلهـا الله علـى آدم، فـإذا أبهـر بيـنهم مـن هـو خـال منهـا غـير متحـل بمـا ظنـوه ناقصـا نصبوه العداء ونابذوه بالألقاب.

نظـرة كـل مـن اشـتهر بفضـل أو عـرف شـيء مـن النبـل نعلـم مقـدار مـا عـان مـن الـدهر، وقـاس مـن مناوبـات النـاس في سـبيل الحـق، فاصـلة فهـذه أئمـة المسـلمين وهـداتهم مثـل ملـك، و الشـافعي، فلاسـفة هـذه الأمـة ودعـاة الصـلاح فيهـا فـالمعري وبـن رشـد وبـن تيميـة، و مـن تقـدمهم، وجـاء

بعدهم من فلاسفة اليونان والروم و الفرس و غيرهم من علماء المعقول و المنقول، من من لا تزال اشخاصهم ماثلة في أذهاننا، و لا نزال نستضيئ بنبراتهم.

و الكونت تولستوي الذي إتراف بما في تراثنا من قيم انسانية، وتأثر بالإسلام و ما حملهم من نور و خير وهدى، و هو واحد من بين العشرة الذين نوهوا بالإسلام و اشاد به كما لخص الأصول البارزة للديانة الإسلامية، وهذا ما حفزن على البحث فتبادر إلى ذهني الإشكال التالي: ما هي صورة الإسلام عند تولستوي وهل هي نظرة حقيقة أم زائفة؟ و هل اقتنع تولستوي بالإسلام فعلا؟

في حقيقة الأمر لم يكن اختياري لهذا الموضوع عبثا، إنما جاء بعد تفكير معمق وطويل وبعد استشارة السيد مكروم وقد وافق على اختياري هذا وعنوانه كما كانت هناك جملة من الأسباب التي دفعت بي بالبحث و من تلك الأسباب:

الرغبة الجامعة والحلم المنتظر لإنجاز هذا البحث من بداية السنوات الماضية، ومعرفة الصورة في أذهان العرب عن الإسلام و المسلمين، الأمر الذي زادني اسرارا على انجازه بكل قناعة.

وقد قسمت بحثي هذا إلى فصلين ومدخل عنونته بـ ( آثار الثقافة العربية بالثقافة الروسية) وقد ضم مجالين الأدب و الفن و القيم الإنسانية.

ونتظم الفصل الأول تحت عنوان: تولستوي والإسلام الذي ادرج تحت مبحثين، تناول في المبحث الأول تنويه بالحضارة العربية أما الثاني فكان حول الرسول الكريم في عيون تولستوي.

و خصصت الفصل الثاني الذي تناولت فيه: الاطلاع على أحاديث النبي (ص) من خلال كتاب حكم النبي محمد عليه الصلاة والسلام ترجمة (سليم قبعين).

ثم اخترت نموذجا لتولستوي حول محمد فكان كتاب حكم النبي و لتحقيق كل ذلك عمت إلى منهج وصفي تحليلي، واستعنت ببعض العناصر بالمنهج التاريخي لما كنت في صدد الحديث عن تاريخ و حياة تولستوي.

ولا بد لكل دراسة من مصادر تعدها بالعون، وكان كتاب حكم النبي محمد لتولستوي هو المصدر الأول و الأهم في الدراسة بالإضافة إلى المصادر الأخرى.

ولا تكاد تخلو دراسة من الصعوبات و المشاق التي تعترض طريقها، و التي يقف على أولها فلة المصادر التي اختصت بدراسة عن الأديب الروسي تولستوي إضافة إلى انعدام الدراسات القائمة ولكن عون الله ومساندة الدكتور مكروم، هما اللذان ساعدان على هذا العمل البسيط.

**اثر الثقافة العربية في الثقافة الروسية في مجالين و هما كالتالي:**

## 1-الأدب و الفن:

إن الكاتب الإنساني الكبير لي وتولستوي، نهل الكثير من الشرق بحضاراته وآدابه وقصصه و أساطيره و فلسفته ودرسها باهتمام وحماس كبير و كان الشرق منبعا لفلسفته و آرائه، ولا عجب في ذلك فقد أعرض تولستوي عن الحضارة الغربية البرجوازية الرأسمالية، التي تقضي على الروح الإنسانية في الإنسان و تجعله عبدا للإله و المال، فراح يبحث عن الروح و الفكر و الحكمة في الشرق و قد درس في كلية اللغات الشرقية و اطلع على الآداب و الفلسفة الشرقية[1]، وكان تو لتسوي أول كاتب روسي يعقد صلات وروابط شخصية مع كتاب الشرق ومفكريه، ومن بينهم المفكرين و الكتاب العرب في عصر النهضة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن 20.

وكان اهتمام تولستوي بالعرب و الحضارة العربية و الأدب العربي لا ينصب و لا يفتر فقد اطلع على الحضارة العربية وتعرف على الفولكلور الشعبي عند العرب، و على الأمثال العربية وقرأ ما ترجم إلى الروسية من الأدب العربي و من بينها رسالة الغفران " للمعري"[2].

تولستوي، منذ طفولته، شغوف بالحكاية و القصص العربية مثل" ألف ليلة وليلة" و "علي بابا و الأربعين حرامي" و "الأمير قمر الزمان" و "علاء الدين و المصباح السحري".

[1] -مجلة المعرفة " الأدب العربي في الآداب الأجنبية" العددان 191-193 كانون الثاني – شباط 1988.
[2]- كؤثرات عربية و إسلامية في الأدب الروسي د.مكازم العمزي ( عالم المعرفة) نوفمبر/ تشرين 1991

فقد قرأ تولستوي ألف ليلة وليلة شابا ترجمت للروسية عن الفرنسية في القرن 09 و تأثر بها و نشر بعضها بأسلوب بسيط و لغة جذابة للأطفال.[1]

إن تولستوي يحافظ على تسلسل الأحداث و الخاتمة و العبرة من هذه القصة، مكتفيا بصياغتها بأسلوب روسي، فيبدل الأسماء بأسماء روسية ويكتبها بلغة جذابة مفهومة، وهذا ما أكسب الحكاية العربية شهرة كبيرة و انتشارا واسعا لدى الشعب الروسي.[2]

كما أدخل تولستوي عددا كبيرا من الأمثال و الحكم العربية انتشارا واسعا بين القراء الروس، فهذه الأمثال تعكس الخبرة الحياتية و التجربة الصادقة للعرب التي تماثل تجارب الشعوب الأخرى.[3]

و مما هو جدير بالذكر أن تولستوي قد اختار الحكاية العربية المعروفة بـ " الملك و القميص" وجعل منها قصة طريفة ذات مغزى تربوي، للأطفال باللغة الروسية، وقد انتشرت هذه القصة انتشارا واسعا حتى أنني نجدها في الكتب و الحكايات الفولكلورية في الغرب، كما استقى تولستوي حكايته المعروفة " الملك الأشوري آسار خادون" التي كتبها سنة 1903 ن المصادر العربية و التاريخية العربية القديمة.[4]

درس ليون تولستوي تاريخ العرب القديم دراسة متعمقة فقد وجدت في مكتبته كتبا ومصادر تاريخية كثيرة عليها إشارات وملاحظات بخط يده تدل على دراسته لهذه المصادر و اهتمامه الكبير بها كما احتوى مكتبته إلى جانب المراجع التاريخية كتبا نادرة بالأدب

[1]- د. نجم عبد الله كاظم تولستوي و التأثير العربي في الأدب العربي في الأدب الروسي.
[2]- حكمت الأوسي التأثير العربي في الثقافة الروسية بغداد 1984.
[3]- الأدب الروسي د. محمد حمود ط1 1429ه- 2008م، ص 41.
[4]- مجلة المعرفة " الأدب العربي في الآداب الأجنبية العدد 191-192.

و الفولكلور العربي صدرت في ذلك الوقت في روسيا بالغة الروسية مثل " حكايات سورية" و كتاب بن علي "حكايات عربية" و غيرها، وفي رسائله لأصدقائه أشار تولستوي أكثر من مرة إلى القصيدة العربية التي عثر عليها في كتاب " قصص وأساطير المعلم جلال الدين". [1]

إن فضل تولستوي كان عظيما في تعريف الجمهور الروسي بثروات ونفائس الأدب العربي و الآداب الشرقية الأخرى، فقد ترجم كثيرا من روائعها إلى اللغة الروسية وكتب مقالات و أبحاثا عديدة من مفكري الشرق، ونشر قيمهم ومبادئهم في روسيا كما تشبع بأفكارهم ونزعتهم الإنسانية وكان من أكبر المدافعين عن حرية الشعب العربي وشعوب الشرق الأخرى. [2]

ويعتبر الكاتب الكبير مكسيم عزركي من الكتاب الروس المولعين جدا بالآداب العربي و الآداب الشرقية عامة، ويقال بأن أول كتاب أدبي يطالعه عزركي بعد تعلمه القراءة و الكتابة (عمره 12) هو الترجمة الروسية لكتاب ( ألف ليلة و ليلة) و من الثابت تاريخيا أن " كتاب ألف ليلة و ليلة" كان رفيق عزركي أينما حل أو رحل.

لقد زاد اهتمام عزركي بالعرب و الأدب العربي و التاريخ الغربي وقد دعى إلى العمل على ترجمة القرآن و "ألف ليلة و ليلة" ترجمة أمينة و رصينة تتفق ومكانة هذين الأثرين الهامين و يقى يتابع أعمال ترجمتهما حتى النهاية. [3]

و تكتشف أشهر رواياته " الحرب والسلام" 1864-1869 و "أنا كارنينا" 1873-1877 و " البعث" 1889-1899 عن رؤية الكاتب تجاه عوالم ثلاثة ( الماضي و الحاضر

سيقمند " تولستوي و الشرق" موسكو 1981.

[2]- لمحات من الأدب الروسي. ماهر، نسيم اقرأ، دار المعارف بمصر 1958، ص 123.

[3]- في الأدب المقارن مقدمات للتطبيق، الدكتور عبد الله كاظم ط1 1429-2008م

و المستقبل) كما تعيد اللشام عن ثلاث درجات لاستيعاب الكاتب للواقع التاريخي يبرز به دائما " غلامان" عالم السادة و عالم المسودين و الذي ينبسط من خلاله مشكلة الفلاح، أكثر الموضوعات المحببة عند تولستوي الكاتب و الإنسان، فقد ارتبطت حياة تولستوي الروحية و أبحاثه النفسية بموضوع الفلاح الذي كان يؤرقه أكثر من أي شيء آخر و الحديث عن الفلاح يرتبط عند تولستوي أيضا بتصوير أزمة المجتمع المعاصر بطبقاته المختلفة و في مقدمتها الطبقة الإقطاعية التي جذب اهتمام فيها البطل الإقطاعي اليقظ الحس الذي يستشعر أزمة الواقع ودور طبقته في هذه الأزمة، ز هو لهذا يقوم بتجربة معذبة و مثابرة يحاول فيها أن يقترب من الشعب و أن يجدد معه لغة مشتركة، لكن مسيرة البطل الإقطاعي في حياة الفلاح ليست بالعملية السهلة.[1]

## 2- في مجال القيم الإنسانية:

لقد نال تولستوي الحب و التقدير في كل مكان، قالوا عنه " انسان الإنسانية" و " ضمر الإنسانية" و غرها من الألقاب الت حاول مطلقوها ابراز الأهمية الكبرى لتولستوي المفكرون الفنان و الإنسان، قال عوزكي " من لا يعرف تولستوي لا يمكن أن يعد نفسه مثقفا فالقيمة الحضارية و الثقافية لمؤلفات تولستوي لا حدود لها و لا غنى عنها عكس تولستوي في إنتاجه بكل الشمول و الصدق قرنا كاملا من حياة روسيا وجسدت مؤلفاته عالما كاملا من الأفكار و المثل و الموضوعات التي لا تمس الواقع الروسي القومي فحسب بل الإنسانية جمعاء. كما ترك العديد من المقالات التي تتطرق لشتى موضوعات الفكر و الفلسفة و الدين، كما تمكن تولستوي

[1]- الأدب الروسي، د. محمد حمود، ص 41-42.

من النفاذ إلى "سر" العلاقات الاجتماعية فجاءت واقعيته بحق " خطوة إلى الأمام في تطور الواقعية لا في الأدب الروسي وحده بل في الأدب العالمي ". [1]

بل هي عملية نفسية و عقلية غاية في التعقيد و تولستوي يوضح أبعاد كل هذه العملية النفسية:" وكانت أكبر إنجازات تولستوي الفنية هي كشفه و توضيحه للعلاقات المعقدة بين النفسية الإنسانية و البيئة الخارجية و المعيشة اليومية.

أثرى تولستوي الواقعية الروسية و العالمية بالبحث الفني لما أطلقت عليه النقاد " ديالكتيك الروح" فالعالم الداخلي عند أبطال تولستوي عالم متعدد الجوانب، و الكاتب يصوره في حركته التي لا تتوقف، و في تأثيره و خضوعه لنفس قوانين إلى ديالكتيك و التطور التي تحدث بالواقع التاريخي نفسه. [2]

كما أوضح تولستوي – المحلل النفسي- أن الصراعات الداخلية في نفس الإنسان هي صراع بين مختلف المشاعر المتناقضة و تولستوي لا ينقل فقط أصغر التفاصيل في الحياة الروحية لأبطاله بل يبحث عملية اكتناز تلك الأمزجة الروحية أو خلافها، وبناء عليه بوضع الانقلاب و البحث الجديد في روح الإنسان تحت تأثير الظروف الخارجية".

[1]-باسم الخفاجي، الأصول الفكرية لموقف الغرب من نبي الإسلام، المركز العربي للدراسات الإنسانية، الرياض،2006، ص 20-21.
[2]- حياة شرارة " تولستوي فنان" المؤسسة الجامعة للدراسات و النشر، ط1، 2004، ص30-31

# الفصل الأول
# تولستوي و الإسلام

1-التنويه بالحضارة العربية و الإسلامية.

2-الرسول الكريم في عيون تولستوي.

3-ملف الشواهد.

# الفصل الثاني

1 - اهتمام بأحوال المسلمين بروسيا.

2 - اطلاعه على أحاديث النبي عليه الصلاة و السلام من خلاللا كتاب:"حكم النبي محمد".

# الملاحق

# قائمة المصادر و المراجع

# المدخل
# أثر الثقافة العربية في الثقافة الروسية.

1-في مجال الأدب و الفن.

2-في مجال القيم الإنسانية.

# الخاتمة

# المقدمة

## 1- أقوال في نبي الإسلام محمد(صلى الله عليه وسلم).

إن محمدا هو مؤسس ورسول، كان من عظماء الرجال الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخرا أنه أهدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام، وتؤثر عيشة الزهد ومنعما من سفك الدماء و تقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقي و المدنية ,و هو عمل عظيم لا يقدم عليه الا شخص أوتي قوة ، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال.

إنّ رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجةً للجهل أو التعصّب، قد رسموا لدين محمدٍ صورةً قاتمةً، لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحية، لكنّني اطّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبةً خارقةً، وتوصلت إلى أنّه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أنْ يسمّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم اليوم، لوفّق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها. إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد. (الفيلسوف الانكليزي "برناردشو).

"من ذا الذي يجرؤ من الناحية البشرية علي تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد؟ ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه عند النظر إلي جميع المقاييس التي تقاس بها عظمة الإنسان؟! فأعظم حب في حياتي هو أنني درست حياة محمد دراسة وافية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود". أضاف: "أي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدركه محمد؟! وأي إنسان بلغ؟ لقد هدم المعتقدات الباطلة التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق وإذا كانت الضوابط التي نقيس بها عبقرية الإنسان هي سمو الغاية والنتائج المذهلة لذلك رغم قلة الوسيلة. فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أيا من عظماء التاريخ الحديث بمحمد في عبقريته؟

« إن الأوضاع العالمية تغيرت تغيراً مفاجئًا بفعل فرد واحد ظهر في التاريخ هو محمد»: المؤرخ "كريستوفر دارسون".

«لا يمكن أن توصف حياة محمد بأحسن مما وصفها الله بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)،[1] كان محمد رحمة حقيقية، وإني أصلي عليه بلهفة وشوق».

«أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر. لقد أصبحت مقتنعاً كل الاقتناع أن السيف لم يكن "مهاتما غاندي" الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهدت الطريق وتخطت المصاعب وليس السيف، بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي آسفاً لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر من حياته العظيمة».

وقال «كارل ماركس»: «هذا النبي افتتح برسالته عصراً للعلم والنور والمعرفة، حري أن تدون أقواله وأفعاله بطريقة علمية خاصة، وبما أن هذه التعاليم التي قام بها هي وحي فقد كان عليه أن يمحو ما كان متراكماً من الرسالات السابقة من التبديل والتحوير، إن محمداً أعظم عظماء العالم. والدين الذي جاء به أكمل الأديان».

وقال الكاتب والأديب البريطاني المعروف "هربرت جورج ولز" في كتاب "معالم تأريخ الإنسانية" : "كل دين لا يسير مع المدنية فاضرب به عرض الحائط، ولم أجد دينا يسير مع المدينة أني سارت سوي دين الإسلام".[1]

[1]-الآية107.، سورة الأنبياء .

آرنولد تـوينبي "المـؤرخ البريطـاني الكبـير" قـال : "الـذين يريـدون أن يدرسـوا السـيرة النبويـة سـيجدون أمـامهم مـن الأسـفار مـا لا يتـوافر مثلـه للبـاحثين في حيـاة أي نـبي مـن أنبيـاء الله الكـرام.... إنـني أدعـو العـالم إلي الأخـذ بمبـدأ الإخـاء والمسـاواة الإسـلامي، فعقيـدة التوحيـد الـتي جـاء بهـا الإسـلام هي أروع الأمثلة علي فكرة توحيد العالم، وأن في بقاء الإسلام أملاً للعالم كله".

قـال الشـاعر الألمـاني "جوتـه": ظـني أن التشـريع في الغـرب نـاقص بالنسـبة للتعـاليم الإسـلامية، وإننـا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد إلي ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد.

يقـول المستشـرق هيـل في كتابـه (حضـارة العـرب): « لقـد أخـرج محمـد للوجـود أمـة، ومكـن لعبـادة الله في الأرض، ووضـع أسـس العدالـة والمسـاواة الاجتماعيـة، وأحـل النظـام والتناسـق والطاعـة والعـزة في أقوام لا تعرف غير الفوضى».[2]

رامـا كريشـنا راو في كتابـه ( محمـد النـبي ) : ' لا يمكـن معرفـة شخصـية محمـد بكـل جوانبهـا، ولكـن كـل مـا في اسـتطاعتي أن أقدمـه هـو نبـذة عـن حياتـه مـن صـور متتابعـة جميلـة. فهنـاك محمـد النـبي، ومحمـد المحـارب، ومحمـد رجـل الأعمـال، ومحمـد رجـل السياسـة، ومحمـد الخطيـب، ومحمـد المصـلح، ومحمـد مـلاذ اليتـامى، وحـامي العبيـد، ومحمـد محـرر النسـاء، ومحمـد القاضـي، كـل هـذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة الإنسانية تؤهله لأن يكون بطلاً '.

سـانت هيلـر: قـال في كتابـه الشـرقيون وعقائـدهم: كـان محمـد رئيسـاً للدولـة وسـاهراً علـى حيـاة الشـعب وحريتـه، وكـان يعاقـب الأشـخاص الـذين يجترحـون الجنايـات حسـب أحـوال زمانـه وأحـوال تلـك الجماعـات الوحشـية الـتي كـان يعـيش النـبي بـين ظهرانيهـا، فكـان النـبي داعيـاً إلى ديانـة الإلـه

[1]- الطريق إلى الإسلام لـ "محمد أسد" ط1، ص26

[2]- تأثير الشرق العربي في فكر تولستوي، ص 120.

الواحـد وكـان في دعوتـه هـذه لطيفـاً ورحيمـاً حـتى مـع أعدائـه، وإن في شخصـيته صـفتين همـا مـن أجلّ الصفات التي تحملها النفس البشرية وهما العدالة والرحمة.

قـال الفيلسـوف "رينيـه دكـارت"[1]: نحـن المسـيحيون والمسـلمون موجـودون في هـذه الحيـاة، ولكـنهم يعلمـون في الرسـالتين "العيسـوية" و"المحمديـة" ونحـن لا نعمـل بالثانيـة ولـو أنصـفنا لكنـا معهـم جنبـا إلى جنـب لأن رسـالتهم فيهـا مـا يـتلاءم مـع كـل زمـان ومكـان، ولأن صـاحب شـريعتهم الـذي عجـز العـرب عـن مجـاراة قرآنـه وفصـاحته بـل لم يـأت التـاريخ بأفصـح منـه إنسـانا وأبلـغ منـه منطقـا وأعظـم منـه خلقـا، وهـذا مـا أهلـه أن يكـون نبيـا في آخـر حلقـات الأنبيـاء وان يعتنـق دينـه مئـات الملايين من البشر.

إننـا لم ننصـف محمـدا إذا أنكرنـا مـا هـو عليـه مـن عظـم الصـفات وحميـد المزايـا، فلقـد خـاض محمـد معركـة الحيـاة: "سنرسـتن الآسـوجي" الصـحيحة فى وجـه الجهـل، مصـرّا علـى مبدئـه، ومـا زال يحـارب الطغـاة حـتى انتهـى بـه المطـاف إلى النصـر المبـين، فأصـبحت شـريعته أكمـل الشـرائع، وهـو فـوق عظماء التاريخ.

يقـول المستشـرق الأمريكـي ( سـنكس )[2] في كتابـه (ديانـة العـرب): "ظهـر محمـد بعـد المسـيح بخمسـمائة وسـبعين سـنة، وكانـت وظيفتـه ترقيـة عقـول البشـر، بإشـرابها الأصـول الأوليـة للأخـلاق الفاضلة، وبإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد، وبحياة بعد هذه الحياة".

[1] عظمة النبي في عيون المنصفيين و العقلاء الغربيين، محمد السقاعيد، شبكة الألوكة، ص 3
[2] نفس المرجع، نفس الصفحة.

يقول (مايكل هارت) في كتابه (أعظم مائة رجل في التاريخ)[1] : "إن اختياري محمداً، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي.

هالني ما جاء فيها من الحقائق الباهرة فدفعتني الغيرة على الحق الى ترجمتها الى العربية"، عن المترجم الكتاب (سليم قبعين) هو مسيحي لبناني.

ويقول الكونت كاتياني في كتابه (تاريخ الإسلام): أليس الرسول جديراً بأن تقدَّم للعالم سيرته حتى لا يطمسها الحاقدون عليه وعلى دعوته التي جاء بها لينشر في العالم الحب والسلام؟! وإنالوثائق الحقيقية التي بين أيدينا عن رسول الإسلام ندر أن نجد مثلها، فتاريخ عيسى وما ورد في شأنه في الإنجيل لا يشفي الغليل.

إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها: عميد كلية الحقوق بفيينا.

إن محمداً رغم ما يشاع عنه من قبل خصومه ومخالفيه في أوروبا إلا أن الحقيقة التي لا مراء فيها أنه أظهر الحلم العظيم والرحابة الفسيحة: المؤرخ الفرنسي "غوستاف لوبون"[2].

يقول المستشرق الكندي الدكتور ( زويمر ) في كتابه " الشرق وعاداته ":

إن محمدا كان ولا شك من أعظم القواد المسلمين الدينيين ، ويصدق عليه القول أيضا بأنه كان مصلحا قديرا وبليغا فصيحا وجريئا مغوارا ، ومفكرا عظيما ، ولا يجوز أن ننسب إليه ما ينافي هذه الصفات ، وهذا قرآنه الذي جاء به وتاريخه يشهدان بصحة هذا الادعاء .

[1] مايكل هارت، تر: أنيس منصور، دار الكتاب العربي، ص51
[2] عظمة النبي في عيون المنصفين و الغربيين، محمد السقاعيد، ص 39.

إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إنه رغم أميته، استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيون أسعد ما نكون إذا توصلنا إلى قمته.

"قوم يضربون في الصحراء عدة قرون لا يؤبه بهم ولهم فلما جاءهم النبي العربي، أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والمعرفات وكثروا بعد قلة، وعزوا بعد ذلة، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم". " لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خدّاع مزوِّر ...إن الرسالة التي أدَّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس: المصلح الاجتماعي الانكليزي "توماس كارليل".

الفيلسوف "برتراند راسل"[1]: لقد قرأت عن الإسلام ونبي الإسلام فوجدت أنه دين جاء ليصبح دين العالم والإنسانية، فالتعاليم التي جاء بها محمد والتي حفل بها كتابه مازلنا نبحث ونتعلق بذرات منها وننال أعلى الجوائز من أجلها".

و"كان محمد بتعاليمه وكتابه أحق بكل الجوائز لكنه لم يسع إلى ذلك وترك الأمور تسير بطبيعتها حتى لا يتهم بأن الإسلام بالسيف ساد وانتشر".

، لقد كانت الأخلاق الإسلامية منذ محمد وحتى اليوم وغداً هي المفتاح الحقيقي للإنسان الذي يحلم بان يكون لوجوده معنى".

[1] مؤثرات عربية و إسلامية في الأدب الروسي، مكارم الغمري، عالم المعرفة، الكويت، العدد 155، نوفمبر 1991.

"الاسكتلندي وليام موير": من صفات النبي الجديرة بالتنويه والإجلال "الدقة والاحترام" اللتان كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأناً، فالتواضع والرأفة والإنسانية وإنكار الذات والسماحة والإخاء وثقت به محبة كل من حوله".

"ولقد امتاز محمد بوضوح كلامه وسهولة دينه ولقد أتم من الأعمال ما لم ولن يستطيعه مصلح اجتماعي، فقد أحيا الأخلاق وحث على الفضيلة.

الفيلسوف الفرنسي "جان جاك روسو"[1]: "لم يـر العالم حتى اليوم رجلا استطاع أن يحول العقول، والقلوب من عبادة الأصنام إلى عبادة الإله الواحد إلا "محمداً" ولو لم يكن قد بدأ حياته صادقاً أميناً ما صدقه أقرب الناس إليه، خاصة بعد أن جاءته السماء بالرسالة لنشرها على بني قومه الصلاب العقول والأفئدة، لكن السماء التي اختارته بعناية كي يحمل الرسالة كانت تؤهله صغيراً فشب متأملاً محباً للطبيعة ميالا للعزلة لينفرد بنفسه".

ويؤكد روسو قائلاً "لو أن محمداً عاش مدة أطول مما عاش، لأصبح الإسلام ورسوله سادة العالم".

المستشرق الأمريكي "بروكلمان": "لم تشبه شائبة من قريب أو من بعيد، فعندما كان صبياً وشاباً، عاش فوق مستوى الشبهات، التي كان يعيشها أقرانه، من بني جنسه وقومه بدليل أن شريفة مكة وهي السيدة "خديجة" استدعته راجية أن يراعي تجارتها ولفرط ثقتها فيه وأمانته في مالها ولثقته الكبيرة في نفسه طلبته زوجاً لها".

[1] عظمة النبي في عيون المنصفين و الغربيين، محمد السقاعيد، ص40.

الزعيم الألماني "هتلر":"أعتقد أن الذي استطاع أن يتعامل مع اليهود، ويكسبهم ويشل حركتهم في نفس الوقت هو رسول الإسلام محمد الذي فهم ما تدور به عقولهم وقلوبهم، لذا كان محمداً حريصاً منهم حريصاً عليهم ليبلغ رسالته فاستقطبهم بطريقته التي لم ولن يصل إلى مرتبتها أحد، فالتعامل مع اليهود مشكلة غير عادية أنهم لا يستحقون الحياة إلا أن محمداً كان واسع الصدر يملك منطقا غير عادي، تأكدنا منه لتعامله معهم بالود الذي لم يألفوه وبالقوة التي شهدوها"

"جواهرلال نهرو"(أول رئيس وزراء للهند بعد استقلالها): فاقت أخلاق نبي الإسلام كل الحدود ونحن نعتبره قدوة لكل مصلح يود أن يسير بالعالم إلى سلام حقيقي.

البروفيسور يوشيودي كوزان (مدير مرصد طوكيو): لا أجد صعوبة في قبول أن القرآن كلام الله، فإن أوصاف الجنين في القرآن لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع ، الاستنتاج الوحيد المعقول هو أن هذه الأوصاف قد أوحيت إلى محمد من الله.

الدكتورة الألمانية سيجريد هونكه: كان رسول الإسلام يعرف أن المرأة ستجد طريقها بجوار الرجل ذات يوم. لذا آثر أن تكون المرأة متدينة . لها لباس معين، حتى تقي نفسها شر النظرات وشر كشف العورات.

ورجل بهذه العبقرية لا أستطيع أن أقول إلا أنه قدم للمجتمع أسمى آيات المثالية وأرفعها وكان جديرا أن تظل الإنسانية مدينة لهذا الرجل الذي غيَّر مجرى التاريخ برسالته العظيمة.

البريطانية "ليدي ايفيلي نكوبولد"[1]: مع أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان سيد الجزيرة العربية فإنه لم يفكر في الألقاب ، ولا راح يعمل لاستثمارها ، بل ظل على حاله مكتفياً بأنه رسول

[1] نفس المرجع، نفس الصفحة.

الله ، وأنه خادم المسلمين ، ينظف بيته بنفسه ويصلح حذاءه بيده ، كريماً باراًّ كأنه الريح السارية ، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه ، وما لديه كان في أكثر الأحايين قليلاً لا يكاد يكفيه.

جون وليام دريبر: ولد في مكة في بلاد العرب الرجل الذي مارس أعظم تأثير في حياة الجنس البشري ... محمد .

الشاعر الروسي بوشكين: "شُقَّ الصدر ، ونُزِعَ منه القلب الخافق ... غسلته الملائكة ، ثم أُثْبِتَ مكانه! قم أيها النبي وطف العالم ... وأشعل النور في قلوب الناس ".

بوسورث سميث: لقد كان محمد قائدا سياسيا وزعيما دينيا في آن واحد. لكن لم تكن لديه عجرفة رجال الدين، كما لم تكن لديه فيالق مثل القياصرة. ولم يكن لديه جيوش مجيشة أو حرس خاص أو قصر مشيد أو عائد ثابت. إذا كان لأحد أن يقول إنه حكم بالقدرة الإلهية فإنه محمد، لأنه استطاع الإمساك بزمام السلطة دون أن يملك أدواتها ودون أن يسانده أهلها.

مونتجومري وات: إن استعداد هذا الرجل لتحمل الاضطهاد من أجل معتقداته، والطبيعة الأخلاقية السامية لمن آمنوا به واتبعوه واعتبروه سيدا وقائدا لهم، إلى جانب عظمة إنجازاته المطلقة، كل ذلك يدل على العدالة والنزاهة المتأصلة في شخصه. فافتراض أن محمدا مدع افتراض يثير مشاكل أكثر ولا يحلها. بل إنه لا توجد شخصية من عظماء التاريخ الغربيين لم تنل التقدير اللائق بها مثل ما فعل بمحمد.

المستشرق الفرنسي إدوار مونته: رف محمد بخلوص النية والملاطفة وإنصافه في الحكم، ونزاهة التعبير عن الفكر والتحقق، وبالجملة كان محمد أزكى وأدين وأرحم عرب عصره، وأشدهم

حفاظاً على الزمام فقد وجههم إلى حياة لم يحلموا بها من قبل، وأسس لهم دولة زمنية ودينية لا تزال إلى اليوم.

فيلسوف فرنسي فولتير : لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنسان أن يقوم به على الأرض ... إن أقل ما يقال عن محمد أنه قد جاد بكتاب وجاهد ، والإسلام لم يتغير قط .

العالم الفيزيائي ألبرت آينشتاين: أعتقد أن محمداً استطاع بعقلية واعية مدركة لما يقوم به اليهود أن يحقق هدفه في إبعادهم عن النَّيْل المباشر من الإسلام الذي مازال حتى الآن هو القوة التي خلقت ليحل بها السلام .

الفيلسوف الأمريكي ول ديورانت: " إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان من أعظم عظماء التاريخ ، فلقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله ، وقلّ أن نجد إنسانا غيره حقق ماكان يحلم به ".

إدوارد جيبون: لقد استطاع المسلمون الصمود يدا واحدة في مواجهة فتنة الإيمان بالله رغم أنهم لم يعرفوه إلا من خلال العقل والمشاعر الإنسانية. فقول " أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله " هي ببساطة شهادة الإسلام. ولم يتأثر إحساسهم بألوهية الله (عز وجل) بوجود أي من الأشياء المنظورة التي كانت تتخذ آلهة من دون الله . ولم يتجاوز شرف النبي وفضائله حدود الفضيلة المعروفة لدى البشر، كما أن منهجه في الحياة جعل مظاهر امتنان الصحابة له (لهدايته إياهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور) منحصرة في نطاق العقل والدين ". منهجه في الحياة جعل مظاهر امتنان الصحابة له.

## 2- اعترافات تولستوي: رحلة البحث عن الله:

أتذكر جيداً ذلك الشعور الغريب الذي انتابني عند قراءة إحدى ملاحظات مكسيم غوركي عن تولستوي. يقول غوركي: صعقني قول غريب في اليوميات التي أعطاني إياها تولستوي, تلك

العبارة هي الله هو أمنيتي. حينما استوضحته عن معنى هذه الأمنية قال: فكرة غير مكتملة, لا بد أني قصدت إلى القول, الله هو أمنيتي كيما أدركه .. لا , ليس هذا .. . كان تولستوي حسب تصور غوركي ومن أحاديث جانبية بينهما تشغله فكرة الله حتى تكدر صفاء ذهنه. يقول تولستوي في بعض أقواله المذكورة في ملاحظات غوركي: ماذا نقصد عندما نقول أننا نعرف؟ أعرف أنني تولستوي, ولي زوجة, وأولاد, وشائب الشعر, وقبيح الوجه, ولي لحية. وهذا كله مدون في جواز سفري. ولكنهم لا يدلفون إلى الروح في جوازات السفر! كل ما أعرفه عن روحي أنها تتوق إلى الاقتراب من الله. لكن ما هو الله ؟ هذا الذي روحي هي ذرة منه. هذا هو كل شيء!

هذا الملاحظات أصبحت صور تمر في ذهني كلما مر اسم تولستوي في أي قراءة. أتخيل وجه مكسيم وهو يسأل معلمه عن هذه الأمنية الحلم, فيرد وجه الشيخ الكثيف اللحية, المعتمر قبعة الفلاحين, بابتسامة عريضة تنسي المحاور الآخر السؤال برمته, وما إن يلتفت إلى الخلف, تطفر منه دمعة كشخص ساذج, ويولي هارباً حتى تشتعل هذه الأمنية كبركان على وشك الانفجار.

هذه الملاحظات لم أعرف ماذا تشكل على وجه الحقيقة في حياة تولستوي, المفكر والأديب المشهور. دستويفسكي في أغلب أعماله الكبيرة, وحتى في كتب السير الذاتية, يعطي توضيح حاد لرحلته إلى الله والإيمان: لقد وصلت إلى الله عبر طريق طويل وشائك من الإلحاد والشك الكبير. قرأت رائعة آنا كارينينا قبل فترة, وكانت أول عمل كامل لتولستوي أتم قراءته بالكامل. كنت أتمنى أن أجد تفسير في الرواية لهذه الأمنية التي تراود تولستوي في دفاتر يومياته, ولكن لم أجد إلا حيرة مضاعفة بسبب شخصية قسطنطين ليفين, والذي عبر عن أكثر أراء تولستوي غموضاً. ليفين: تلك الشخصية التي لم تكن إلا تولستوي نفسها بكل تطرفها. كتب تولستوي

عن نفسه في هذه الرواية وعبر عن أكثر آراءه بشكل حاد. من سيقرأ بعض ما كتب في يوميات تولستوي المنشورة في صور أدبية لمكسيم غوركي سيجد أغلب أفكاره مطروحة في شخصية ليفين. من أنا؟ وما هو هدف حياتي؟ والأهم: أين الله؟ من هو الله؟ وكيف أحيا بوجود الله؟ ما هو الوجود؟ ولماذا أنا موجود؟ هذه الأسئلة لإنسان مغرق في الشك – وملحد –كانت ذا تأثير عميق في الرواية, وتفنن تولستوي بتصويرها بأروع ما يكون التصوير الفني. ولكن, وهذا السؤال هو الأهم: من أين ظهرت هذه الأمنية؟ وما دلالتها في حياة تولستوي الأدبية والفكرية؟ وأخيراً: هل تحققت أمنيته؟ هل عرف الله كما تتمناها روحه؟

لمعرفة الجواب يستلزم أن تقرأ أكثر, أن تعرف سيرة حياته، وبشكل خاص مسيرة تولستوي الفكرية. كانت مهمة البحث عن أجوبه لهذه الأسئلة ليست بالسهلة على الإطلاق. كتب البيوغرافيا التي تحدثت عن تولستوي لم تستطع الإجابة عن هذه الأسئلة بالتفصيل. الناقد الروسي ك. لومونوف عبر كتابه صفحات مجهولة من حياة تولستوي يقدم سيرة أدبية رائعة ومشوقة لتولستوي. الجانب الأدبي طغى على الجانب الفكري مما سبب غموض أكثر بالنسبة لي. لومونوف يقدم لي تولستوي الأديب, صاحب الروائع الخالدة : الحرب والسلم, آنا كارينينا, البعث, أنا لا أريد تولستوي هذا, أريد تولستوي صاحب الأمنية الكبيرة: الله هو أمنيتي.

دائماً ما أجد أقوال دستويفسكي عن تولستوي موفقة وتصف الحالة العامة لتولستوي على وجه الدقة, هو لا يتكلم كثيراً ولا يرفع منافسه لمستوى أكبر منه, رغم أنهما منافسين شرسين. حينما يقول أن آنا كارينينا هي أعظم رواية روسية فهو صادق. آنا كارينينا هي أقرب لمسمى الرواية أكثر من أي عمل روسي آخر. أما حينما يقول أن أمثال تولستوي هم معلموا المجتمع،

معلمونا، ونحن مجرد تلاميذ لهم, فذلك يستلزم البحث لتعرف لماذا وصف دستويفسكي منافسه الشهير بوصف المعلم الكبير؟ وهل لهذا الوصف والتبجيل علاقة بأمنية تولستوي؟

لن يستطيع أحد أن يحلل ويفسر لي أمنية تولستوي أكثر من تولستوي نفسه, عبر كتابه الشهير اعترافات تولستوي . A Confession and OtherReligiousWritings ولكن المصيبة أن الكتاب غير متوفر في المكتبة العربية حسب علمي المتواضع. قررت شراء الكتاب في أقرب زيارة للخارج, وها هو كتاب الاعترافات بين يدي الآن, مع نهاية هذه السنة أجد هذا الكتاب أكثر الكتب تأثيراً عليّ حتى الآن!

اعترافات تولستوي .. صدر هذا الكتاب عام 1879م, أي بعد صدور آنا كارينينا بفترة ليست بالطويلة. إن كان تولستوي أراد أن يكون ليفين هي الشخصية التي تعبر عن أرائه الفكرية بشكل يحمل بعض الغموض, فإن كتاب الاعترافات أزال هذا الغموض بشكل كبير, وأعلن صاحبه أن هذه الشخصية هي جزء منه, جزء من قلبه الذي يحث عن الله والإيمان, ولا يعرف حتى الآن أي طريق سيسلك لتحقيق هذا الحلم.

أني أرثي بحق للمكتبة العربية التي لا تحتفل بمثل هذه الكتب المليئة بالروحانية والنور. كان تصوري أن الكتاب مملاً كعادة بعض المؤلفين حين يكشفون عن أنفسهم ويعرون أرواحهم أمام الملأ, مع تولستوي الأمر مختلف : سأكشف لك كل أسرار حياتي لكي تعلم, أن رحلتي للبحث عن الله الخالق ليست بالهينة. لقد حاول الكاتب في أعنف مراحل حياته الفكرية الإبتعاد عن أي شيء مادي قد يتسبب في موته, أنه يهرب من الحبال مخافة أن يشنق نفسه,

وقاوم نفسه العاشقة للصيد, أن يمسك سلاحاً نارياً مخافة أن يطلق النار على نفسه, ويتخلص من هذا النار المحترقه في عقله, وقلبه !

تولستوي الشاب, في أولى مراحل حياته تحرر من كل ضروب العبادة والإيمان التي تعلمها من الصغر. الطبقة النبيلة التي ينتسب إليها كانت ذا تأثير عميق في تلك الفترة, يلخص تولستوي مركزهم بأن نور المعرفة والحياة قد أذاب قصور الإيمان المصنوعة من الشمع في أعماقهم, فأدرك فريق منهم حقيقة الأمر وتخلصوا من الإيمان, ولكن الفريق الآخر ظل متعامياً عن هذه الحقيقة فلم يشعر بها. بعد هذا التحليل لإيمان الطبقة النبيلة, يعترف تولستوي في بداية اعترافاته بأن الإيمان المغروس في أعماقه قد زال بشكل كليّ, ولم يكمل السادسة عشر حتى انقطع عن الصلاة. هذا التحول من الإيمان إلى الإلحاد تسبب بأزمة وحيدة هي الأزمة الروحية لكل حياة تولستوي: الله!

تولستوي لم ينكر وجود الله, ولكن لم يعرف من هو هذا الإله الذي لم ينكر وجوده. في عمر الخامسة عشر بالتحديد بدأ بقراءة كتب الفلاسفة . تحولت حياته بعد أن تخلص من كل ضروب الإيمان, إلى الحصول على أسمى مراتب الأخلاق الصالحة : الطموح, القوة, الحصول على الربح, الكبرياء, الغرور, الغضب والإنتقام. تلك كانت عقيدة هذا الشيخ الروسي العتيد. أصبح بإستسلامه لهذه الأهواء ممثلاً ومماثلاً لأبناء طبقته النبيله .

تولستوي يعري تلك الأيام السوداء من حياته :" قتلت الكثيرين في الحرب, بارزت الكثيرين لأفقدهم حياتهم, خسرت أموالاً كثيرة بالمقامرة, وأنفقت الأموال الكثيرة التي وصلت إليّ بأعراق الفلاحين, قاسياً عاتياً مع معاملة خدمي, لم أترك سبيلاً من سبل الفسق إلا وسلكته,

الكذب, والسرقة, والزنا, والسكر, والتمرد, والقتل, كل هذا جزء من حياتي في تلك الأيام, فليس في قاموس الجرائم جريمة واحدة لم أرتكبها, ولكنني كنت مع كل ذلك مكرماً محترماً من أبناء عشيرتي."

هذه الاعترافات مخيفة, كيف برجل وصل إلى قمة مجده الأدبي أن يعلن بصراحة أن كل هذه السيئات قام بإرتكابها, هل هي تخاريف رجل كبير في السن, أم كشف معالم النفس أمام الجميع .. كل هذا لا يهم, المهم هو الطريقة التي يكشف فيها تولستوي سيرة حياته المظلمة. هو يسلك طرق الظلام ليصل إلى النهاية, إلى النور. هو لا يفصل سيرة حياته المظلمه كما فعل محمد شكري في الخبز الحافي, هي فترة وأنقضت, ولا سبيل لإعادة أحيائها من جديد. تمنيت لو أن محمد شكري سلك طريق تولستوي في كتابة السيرة الذاتيه, وقدم مختصر حياته المظلمة, ثم يرحل بعيداً إلى الطريق الذي أنار إليه معالم الحياة كما في الجزء الثاني من ثلاثيته " الشطار ".

تولستوي المفكر, والمقبل على الأدب والمجد يسلك في السادسة والعشرين منهج الأدب والشعر لكي يعوض فقدان الإيمان الذي تخلص منه. لقد ارتحل إلى بطرسبروغ وانضم إلى جماعة الكتاب : تلك الجماعة التي تؤمن بأن واجبهم في الحياة كمفكرين فنانين وشعراء أن يعلموا الناس الطريق الصحيح, وتصبغ أفكارهم بصبغة أفكارهم. أني أستغرب كيف سقط تولستوي تحت فكر هذه الجماعة وهو الهارب من سلطة رجال الدين الأرثوذكس. السبب لن يكون إلا في الفكرة الشعرية الجذابه, والشعور بالفراغ الروحي. لو تخلص تولستوي من الشعور بالجاذبية تجاه هذه الجماعة, وفكر مثلما يفكر في السنة الثالثة لأعلن كفره بهذه الجماعه المتخاصمة,

الماكره : "الأكثرية الساحقة منهم في مستوى أكثر انحطاطاً من المستوى الذي عاش فيه رفقائي في العسكرية, كنا نمثل رواية كامل أبطالها مجانين من الدرجة الأولى ."

يطلق على هذه الفترة من حياة تولستوي الفكرية, مرحلة الفن والشعر. لم تستمر هذه المرحلة أكثر من ستة سنوات, لم يتقبل عقله فكرة تعليم وتثقيف الناس وهو لا يعرف حتى الآن ما هية الخير والشر, ومدى ارتباط الاخلاق بالخالق. المرحلة الثانية هي المرحلة التقدمية. تأثيرات هذه المرحلة بدأت بعد مغادرته إلى أوروبا للتعرف على عظماء مفكريها وعلمائها. من أبسط الأشياء تولد ردات الفعل العنيفة. فكرة العيش من أجل الناس والتقدم العام فكرة جذابه للجميع, لا يستطيع أحد أن يرفض فكرة التعليم والتثقيف من أجل الجميع, هدف العيش الآن أصبح من أجل التقدم العام. ولكن منظر الرؤوس الساقطة على الأرض بسبب آلة الإعدام ضرب هذه الفكرة في وقت حرج, ما من نظرية محددة ولا عقائد مقررة من بدء الخليقة إلى الآن تبرر قطع الرؤوس حسب تعبيره. ثم موت أخيه ديمتري المرير, الذي مات مريضاً وهو لا يعلم لماذا عاش في هذا العالم, جاهلاً الموت كل الجهل, رغم قلبه الرقيق, وهدوئه ورصانته .

التقدم يجب أن ترافقه الحرية والعقل, قد يكون هذا التبرير هو طمس لمعالم الرأس الذي سقط على الأرض, والنفس التي رحلت ولا تدري ماهو الموت على حقيقته. عاد تولستوي إلى روسيا بعد تحرير العبيد. أصبح قاضياً, وعمد إلى تعليم غير المتعلمين بواسطة المدارس والصحافة. مرت حادثة ساعدته على نسيان أمنيته مؤقتاً : زواجه من صوفيا آندريفنا. قادته السعادة التي وجدها في حياته الزوجيه إلى الهرب من السعي وراء إدراك معنى الحياة. على هذه الصورة عاش خمسة عشر سنة, ولم يعرف أن في نهاية هذه السنين ستعود هذه الأسئلة بشكل أكبر وأعنف : "لماذا تعيش؟ وماهي الغاية من حياتك؟". هذه الأسئلة القلقة كانت تمطر عليّ بكثرة عند قراءة آنا

كارينينا عبر شخصية ليفين. :" حسن وجميل, لدي مساحة أرض كبيرة, وثلاثمائة حصان, و .. لكن مالفائدة من كل هذا؟ مالفائدة إذا صرت أشهر من فولتير وبوشكين وموليير وغوغول .. هذا جميل ولكن ماذا بعد؟". هذه الأسئلة كالشبح القاتم يردد بصوته الراعب, لماذا تعيش! هي ليست أسئلة صبيان بسيطة, بل هي الحقيقة الشاملة لأعمق أسرار الحياة البشرية, وهو عاجز أن يجيب على أي سؤال من هذه الأسئلة:

"لم يبقى لي عذر للحياة, يجب أن أموت ."!

الموت : أحد الثيمات المفضلة في كتابات تولستوي الأدبية. هو يختلف عن غيره من أدباء العالم في تصوير الموت. فيكتور هيجو يبجل الموت عند موت أحد شخصياته, الموت هو طريق الحرية والكمال الأعظم, ولذلك يصوره بشكل هادئ وسلس. تولستوي عند تصويره للموت يستخدم كل أسلحته المرعبه لتصوير هذا الأسود القادم. أتذكر جيداً تلك الصفحات التي أفردها لموت نيقولاي في رائعة آنا كارينينا, كانت أكثر من ما يقارب ثلاثين صفحة كلها تعذيب وموت لهذا الرجل المريض بالسل, ولكن الأعنف .. الموت الحقيقي, من يريد أن يعرف الموت الحقيقي عند تولستوي عليه أن يقرأ تلك القطعة الخالدة من أدبه, عندما يصور آنا وهي تائهه, خارجة عن نطاق الوعي, تخرج من المنزل وهي تلعن عشيقها التي ضربت من أجله مجتمعها وعائلتها عرض الحائط, ثم تنظر إلى أحوال الناس في الطريق إلى محطة القطار, تضحك وتبكي على حالها, وفي الأخير, عند آخر ظهور لهذه الشخصية الجحيمية, لن تقول أكثر من : ياألله. بقدر قوة الألم في هذا التصوير: من أين لتولستوي هذه القدرة المرعبة على تصوير هذا الموت بهذا الشكل العنيف والدرامي؟

للإجابة على هذا السؤال يجب العودة لاعترافات تولستوي التي كشفت حقيقة الموت لديه. في فيلم "Anna Karenina - 1997" يقتبس المخرج حكاية من التراث الشرقي القديم كنقطة بداية لهذه الملحمة. يبدأ الفيلم بتصوير الموت بطريقة رمزية, كان ليفين يهرب في الريف, يحاول النجاة بنفسه من الذئاب التي تطارده, والتي هي بدورها الأسئلة المقلقة في الرواية والاعترافات, ثم يسقط في حفرة, ويتمسك بجذع شجرة قبل السقوط, ولو سقط, لوجد الموت الذي يفر منه, لأن أحد الحيوانات المفترسة اتخذ من الحفرة مصيدة للبشر. قبل هذا المشهد يبدأ السرد في الفيلم من ليفين, يقول بما معناه " دوماً في أحلامي أتعلق بفرع شجرة, وأدرك تماماً أن الموت حتما ينتظرني, الخوف من الموت بدون معرفة الحب, كان أقوى من الخوف من الموت نفسه. أعرف الآن أني لم أكن لوحدي في رعب هذا الظلام, وكان أيضاً خوف آنا كارينينا" . هذه الشجرة التي تعلق بها يوردها تولستوي في اعترافاته, فيما هو متمسك بجذع الشجرة يرى جرذين يقرضان الجذع بكل همة ونشاط, فكر هذا الرجل المتسك بجذع الشجرة بأنه ساقط لا محالة, ولكنه نظر في الوقت نفسه بضع نقاط من العسل على جذع الشجرة, فمد لسانه وشرع يلحسها متناسياً شقاءه كله !

"هذا أنا أتعلق بغضن شجرة الحياة, عارفاً أن تنين الموت ينتظرني, وهو على استعداد ليمزقني ارباً ارباً. كانت فكرة الإنتحار تخطر لي في كل يوم وحين, إنني أكره الحياة ولا أريد أن أعيش! ولكن خوفي من الموت كان يضطرني إلى استنباط الحيلة ضد نفسي لكي لا أضع حداً لحياتي. كانت حياتي أضحوكة جنونية موجهة إلي من شخص لا أعرفه, ومع أنني لم أكن أعترف بوجود هذا الشخص الذي يقولون أنه خلقني, فإن النتيجة القائلة بأن هذا الشخص قد ضحك

عليّ بجنون وسخرية عندما خلقني في هذا العالم كانت تظهر ليّ كأنها أصدق ما في الحياة من النائج الطبيعية."

-من أنا ؟ وما هو الوجود ؟

-كل شيء . ولا شيء!

-لماذا وجدت هنا؟

-لا أعرف!

-ما مصير حياتي ؟

-لا شيء!

إنه أشبه برجل ضائع في غابة, يقبل على سهل فسيح, فيتسلق شجرة وينظر من أعلاها سهولاً واسعة لا تقف العين على آخرها, ولا مأوى يلجأ إليه فيها, يرى كل هذا فيدرك أن ليس فيها أحد ينقذه, فيرجع إلى ظلمة الأسئلة. انتهت مرحلة الشعر والفن, ومرحلة التقدم, وبدأت مرحلة الفلسفة للإجابة عن هذه الأسئلة, فأي أجوبة تلك التي تقدر على نسف هذه الأسئلة وطمس معالمها من قلبه بشكل كامل. إن الفلسفة بكامل علومها لا تستطيع أن تقدم له أجوبه أكثر مما أجاب عليه. لو كان الأمر متعلق بأحد مسائل فروع المعرفة البشرية لوجد إجابة عن : التركيب الكيميائي للمواد, حركة الشمس, الذرات الصغيرة. ولكن الجواب عن تفسير معنى الحياة العام لم يكن إلا هروب من السؤال نفسه :" الوجود أبدي وخالد وغير مدرك, وحياة الإنسان جزء صغير غير مدرك من الوجود الكلي الغير مدرك". بأجوبتها الغارقة في التحليل

الفلسفي تبرهن أن هذه العلوم لا تقدر أن تجاوب على هذا السؤال الكبير, بل تقضي على كل رجاء في القلب لمعنى يستحق أن يعيش من أجله الإنسان .

بعد أن فشل في كل المراحل: الفن والشعر, التيار التقدمي, الفلسفة, شرع ينشد الإجابة من نفس المكان, من الحياة نفسها! ولكن كيف بوجود أبناء هذه الطبقة النبيلة البعيدة كل البعد عن إثارة هذه الأسئلة فقط. إنهم يهربون منها بشعور أو بغير شعور عبر أربعة وسائل حسب تصنيف تولستوي: الوسيلة الأولى الجهل الذي يضرب أسس هذه الطبقة, هم لا يرون الوحش الذي ينتظرهم ليفترسهم. وسيلة الهرب الثانية هي التي يلجأ إليها الشهوانيون وعباد أهوائهم الجامحة, على هذه الصورة يقضي أبناء هذه الطبقة, توضح لهم الجميل وتحجب عن أعينهم القبيح. الوسيلة الثالثة هي القوة والعزم, عدم الوجود خير من الوجود, يجب وضع حد لهذه الحياة بالإنتحار:" حبل حول العنق أو ماء يغرقون فيه, أو قطار يقفون في طريقه فيذهب بهم ويريحهم من شقائهم, أن عدد الذين يقدمون على هذا العمل من أبناء هذه الطبقة يتزايد في كل يوم". والوسيلة الرابعة هي الضعف, الاستسلام لهذه الحياة رغم معرفتهم بأنها عقيمة لا جدوى منها. بمثل هذه الطرق ينقذ أبناء الطبقة الراقية ذواتهم من تناقض مزعج في الحياة .

ينقسم الكتاب في نهاية الفصل السابع إلى قسمين, القسم الأول مخصص للبحث عن إجابة لهذا السؤال؟ ما هي الحياة؟ ولماذا أنا موجود؟ . والجزء الثاني مخصص للأمنية الكبيرة: أين الله ؟

إن كان تولستوي بطبقته الراقية تعيش هذا الخواء الفكري, فما هو المعنى الذي أعطته الحياة للملايين من الناس, الذي عاشوا ويعيشون في هذا العالم؟ أستطيع أن أقول الآن أن شخصية ليفين كانت تعبر عن تولستوي بكل مهارة واتقان, وكما كتب هو عن نفسه في اعترافاته.

الصراع النفسي والروحي يشتعل سريعاً ويثور في أوقات مفاجئة عند ليفين. من قرأ كلمات الفلاح البسيط في رواية آنا فسيعرف بدون أي قراءة لهذه الاعترافات كيف اهتدى تولستوي إلى معنى الحياة :" إنه يعيش من أجل روحه, ولا ينسى الله" .. بالمقارنة بين طبقة تولستوي وطبقة الفقراء والعمال, وجد هذا الرجل المتعطش لليقين شيئاً يختلف كل الإختلاف. حياة الفقراء والعمال مليئة بالتضحية والألم, الإنتحار معدوم فيما بينهم, عن طريق الألم يعرف تولستوي معنى الحياة. هذه المعرفة التي لا سلطان للعقل عليها هي الإيمان الذي لم يتقبله تولستوي. كان مشوشاً فيما مضى لأن المعرفة التي يقيمها العقل تنكر الحياة, والمعرفة التي تمنحها الحياة تنكر العقل, ولكن أكثرية أبناء الإنسان يتمسكون بمعرفة لا أثر للعقل فيها, وهذه المعرفة تثبت لهم أن للحياة معنى سامياً !

في جميع أبحاث تولستوي كان يقابل المحدد بالمحدود, وغير المحدود بغير المحدود, ولذلك كانت النتيجة التي لا بد منها كما يحدث في الرياضيات. يعلن تولستوي أن الأجوبة التي يقدمها الإيمان مهما خالفت أحكام العقل وتمردت على شرائعه فهي تمتاز بأنها تقدم لكل سؤال علاقة بين المحدود وغير المحدود, وبدون هذه العلاقة لا يمكن الحصول على جواب. أصبحت الأجوبة الآن سهلة المنال:

-كيف أعيش؟

-تحت شريعة الله

-هل بعد حياتي شيء حقيقي ثابت؟

-عذاب أو راحة أبدية

-هل في حياتي معنى لا يستطيع الموت أن يذهب به ؟

-نعم, وهو الوحدة مع إله غير محدود في الفردوس.

"مهما تعددت أنواع الأجوبة التي يقدمها الإيمان للإنسان, فإن كل واحد منها يجعل لحياة الإنسان المحدودة معنى غير محدود, معنى لا يزول ولا يفنى مهما اجتمعت لمحاربته جيوش الآلام والوحدة والموت. الإيمان الحقيقي الكامل هو معرفة معاني الحياة الإنسانية معرفة تحمل الإنسان على محبة الحياة والمحافظة عليها. الرجل الحي يؤمن بشيء, وبغير الإيمان لا يستطيع بشر أن يعيش في هذا العالم, لأن الذي لا يؤمن بأن في الوجود غاية يعيش لأجلها هو ميت بالحقيقة.

-من أنا ؟

-جزء من غير المحدود

تلك هي القضية بأكملها, ولكن أي إيمان سيتخذه تولستوي لنفسه, إيمان رجال الدين الأرثوذكس؟ أم إيمان الفقراء الذي كان فعالاً في حيرته المجنونة؟ يقول تولستوي في أحد رسائله المنشورة:" بعد سنتين من هذه الحياة مع الشعب, حدث في تحول. إن حياة أمثالي من الأغنياء والمتعلمين لم تبعث في نفسي إلا الإشمئزاز, وبدت لي فارغة من المعنى. ظهرت لي جميع أفعالنا ومشاغلنا الفكرية وفنوننا وعلومنا بمظهر جديد. حينذاك استطعت أن أرى الأشياء جميعاً بوضوح."

سأفصل دخوله في حياة الفقراء والإيمان بهم لأنه جزء مهم في مسيرة تولستوي المعيشية والفكرية. تولستوي في كتابه حياة محمد وشيء عن الإسلام يورد بعض الاحاديث في البداية التي تدلل حب الأنبياء للطبقة الفقيرة, وأن أكثر الناس اتباعاً للأنبياء هم الفقراء, يقول النبي محمد عليه السلام : اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة {3}. وفي حديث أخر يقول لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يفسد إذا كثر عليه الماء, وفي حديث أخر : ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. كان تولستوي معجباً بحكمة النبي محمد عليه السلام, ومن خلال نظامه المعيشي, ودراسة حياة الفقراء العامة وعقائدهم ترسخ في أعماق لبه بأن الإيمان الحقيقي كائن في قلوب هؤلاء الفقراء, وأنهم يعتقدون في أعماق نفوسهم أن هذا الإيمان جزء مكمل لحياتهم وبدونه لا يجدون من معنى لوجودهم على الأرض. إنهم يفرحون بالحياة, راضين بقسمتهم, ثائرين أمام أوجاعهم وأمراضهم, يعيشون ويمرضون ويموتون من غير أن تفارقهم الثقة بحكمة الحياة. لأجل كل هذا أحبهم تولستوي ودنا منهم, فأصبح يتعلم من حياة الفقراء, فآثر اقتفاء خطواتهم والتحلي بأخلاقهم.

"إنَّ أكثر الأشياء أهمية على هذه الأرض عند كانط هو النظام الأخلاقي الموجود بداخلنا، أو التلقائية الذاتية الأخلاقيةthe moral autonomy التي تميّز الإنسان و تعطيه قيمته الإنسانية. إنها التلقائية الذاتية التي تجعلُ الفرد يستشعر حريته الكاملة في اختياره الأخلاقي، و رغم ذلك يقوم بالإلتزام بنظامه الأخلاقي الذاتي. إنّ هذا النظام الأخلاقي الداخلي هو أهم شئ في الحياة، و بدونه لا يمكن أن تقوم حضارة أو أي شكل من أشكال التواصل الإنساني" {4} رأى تولستوي بوضوح –كما عبر كانط – أن على الراغب في إدارك معنى الحياة أن

يعيش هو نفسه أولاً حياة بعيدة عن الشر ممتلئة بالمعاني الصالحة, وحينئذ تستنير بصيرته فيرى المعنى الحقيقي لحياته. يجب على الذي يتكلم عن الحياة أن ينظر إليها نظرة عامة, ولا يقصر نظره على حشرات دنيئة عليها. إن في الوجود إرادة كلية تدير كل ما فيه من الكائنات, وهذه الإرادة الكلية لا عمل لها سوى العناية بحياتنا وبالوجود الذي نعيش فيه. لكي نرجو إدراك غاية هذه الإرادة يجب قبل كل شيء أن نعمل الواجبات المفروضة علينا, إن لم أقم أنا بقسطي من الواجب في الوجود, فإنني لن أعرف شيئاً عن هذه الإرادة ولا عن الوجود الذي أنا جزء منه !

جميع هذه الاعترافات ورحلة البحث عن معنى الحياة والوجود لم تكن إلا بوابة العبور لتحقيق أمنية تولستوي الكبيرة: الله. ما يدفعه للبحث عن الله ناتج من شعور قلبي, عاطفة قلبية تدفعه للبحث عنه. إذا كنت أنا موجود فلا بد من علة لوجودي, ماهي هذه العلة أو القوة؟ وما هي العلاقة التي بيني وبين الله؟ لم يجد تولستوي رغم انضمامه للفقراء إلا الجواب البسيط :"هو الخالق بارئ كل الكائنات". عادت إليه الشكوك من الجديد, وشرع يصلي بحرارة للإله, بيد أن افراطه في الصلاة لم يزده إلا ثقة بأن صلواته لم يسمعها أحد, ولذلك صرخ من أعماق قلبه واليأس يغمره لعدم مقدرته على الإهتداء إلى الإله الذي يفتش عنه:

"يارب أرحمني وخلصني .. أيها الرب العظيم .. ياإلهي العزيز أنقذني ! "

مثل هذه الصرخات الحية صورها تولستوي كذلك في رواية آنا, عندما يصرخ ليفين وهو يسمع عذابات زوجته عند الولادة, وهو الملحد الغارق في الشك حتى في وجود الله نفسه يصرخ من أعماق قلبه :

"يالله أرحمني ."

وهو الذي لم يرفع رأسه منذ سنوات, رفعها من أجل ظهور معجزة هذا الطفل الذي لم يكن قبل ساعة في هذا الوجود. كيف ظهر هذا الطفل إلى الوجود؟ معجزة؟ نمو طبيعي في جسم الإنسان؟ حين أقرأ ليفين وهو ينتظر زوجته التي تعاني آلام الولادة يظهر لي تولستوي الكهل الكبير وهو يتساءل هذه الأسئلة التي يعرف أجوبتها من الطفولة, حين كان يرضع من ثدي أمه

:

"أليس هذا دليلاً على أن هناك أماً ولدتني؟ وأعتنت بتربيتي وأطعمتني؟ أين هي تلك الأم؟ أنني لا أستطيع أن أتعامي عن رؤية هذه الحقيقة, وهي أن كائناً أحبني وكان السبب في وجودي؟ هو – بلا شك – الله. هو موجود بالحقيقة وفي كل لحظة أعترف بوجوده, أشعر بأن حياتي قد تجددت, وإيماني بما في الوجود قد نهض من رمسه. إلا أنني لا أستطيع الإيمان بالإله المثلث الأقانيم, لقد ذاب كالجليد أمام عيني. ولكن من أين لي بالشعور الذي يعمل في قلبي ويحملني إلى البحث عن الله! هذا الشعور يختلج في أعماقي. أنني لم أعش في ما مضى من عمري إلا عندما كنت أؤمن بالله. كلما آمنت بالله أشعر بالحياة. كلما أعرضت عن هذا الإيمان أشعر بأنني ميت بالحقيقة. ما أنشده هو الكائن الذي لا تستقيم الحياة بدونه! الله هو الحياة. عش لتسعى إلى الله, لأن الحياة لا تكون بدون الله, بمثل هذا آمنت أخيراً من أعماق قلبي, فشعرت بقوة الحياة الحقيقية. ولم يفارقني هذا النور الذي أشرق على حياتي حتى اليوم! رجعت بالفكر إلى الماضي البعيد, إلى أيام شبابي, آمنت بأن واجب الحياة تقوم بسعي الإنسان ليصير أفضل مما هو عليه, ويعمل ما هو عدل في شريعة هذه الإرادة الكلية, هذه الإرادة التي لا تظهر إلا في

الصـــلاح الـــذي أجمعـــت عليـــه الإنســـانية. رجعـــت إلى الإيمـــان بـــالله, وبالكمـــال الأدبي, وبالتقليـــد الذي يمنح الحياة معناها الحقيقي."

اعترافـات تولسـتوي, وتحقيـق الأمنيـة لا تنتهـي عنـد هـذا الحـد. كـان هنالـك شـيء وحيـد حـول هـذه الاعترافـــات أكســـبها شـــهرة عالميـــة لم يصـــل إليهـــا أي كاتـــب في زمانـــه. ألا وهـــي علاقـــة المـــؤمنين بالكنيسـة ورجـال الـدين. عنـدما عـاد إليـه الإيمـان مـن جديـد شـارك تولسـتوي البسـطاء في صـلواتهم, ومناولـة الأسـرار المقدسـة, والصـيام. لم يخلـب عقلـه في القـداس الـديني سـوى هـذه الجملـة " لنحـب بعضـنا بعضـاً بعـزم واحـد" وكـل شـيء, بمـا فيهـا الاعـتراف بـالأب والإبـن والـروح القـدس فـأعرض عنهـا لأنها غـير طبيعيـة. كـان الإيمـان في بدايتـه في حيـاة تولسـتوي, ممـا أجـبره علـى مسـايرة الكنيسـة وعدم الاعتراض على أي شيء قد يعيد إليه أيام الشك الرهيب .

بعـد أن عكـف علـى تعلـم العبريـة واليونانيـة، ليتّسـق لـه أن يطلـع علـى المنبـع الـذي صـدرت عنـه مختلـف ترجمـات العهـد القـديم والعهـد الجديـد. قـارن بعضـها بـبعض وأشـار إلى الغمـوض الـذي يحـيط بـبعض النصـوص الدينيـة ومـا نـتج عـن ذلـك مـن تفسـيرات متناقضـة وانتهـى إلى القـول أن المسـيح نفسـه، لـيس بإلـه، ولا يمكـن أن يكـون سـوى إنسـان بـريء مـن السـمة الإلهيـة الـتي يقـرن إليهـا. وهـاجم الطقـوس الدينيـة، واتهمهـا بأنها موضـوعة مزيفـة، ونظـر إلى الكنيسـة نظـرة تحـدٍ ومنـاجزة، فقـد رأى كيـف تغلّـف القشـور الكاذبـة فكـرة الإيمـان، وشـرع يفـوّق سـهامه اللاذعـة إلى الكنيسة داعياً إلى دين منزه عن التمويه والتضليل .

نتج عن هذه الأراء الحادة التي كانت تؤذي رجال الكنيسة، قرار اللعن والطرد من الكنيسة الصادر من المجمع الكنسي الأرثوذكسي بحق تولستوي. أولى القضايا التي أوجبت انفصاله عن الكنيسة الأرثوذكسية هي علاقة الكنيسة الأرثوذكسية مع بقية الكنائس المسيحية, كالكاثوليكية والبروتستانت. شغف تولستوي العظيم بالإيمان قاده إلى التعرف بأساتذة كثيرين من طوائف متعددة. أراد أن يكون أخاً لهؤلاء الرجال المؤمنين المخلصين في إيمانهم, لكن النتيجة .. النتيجة أتت مخالفة على عكس ما توقع؟

العقائد التي يخيل أنها تعد بوحدة جميع الناس, بإيمان واحد, ومحبة واحدة, بشخوص أفضل وأعظم ممثليها من رجال الدين يعيشون في الكذب والضلال, مقدرتهم على الحياة حسب تصور تولستوي مستمدة من الشيطان وليس من الله. الإهانة الصادرة من رجل من طائفة " أ " ضد رجل من طائفة " ب " يتهمه فيها بأنه يعيش على الكذب هي أعظم إهانة يستطيع الإنسان أن يوجهها إلى أخيه الإنسان. ممثلي الطوائف هؤلاء يفتشون عن خير الوسائل التي تمكنهم من القيام بواجبات بشرية يبيضون فيها وجوههم أمام الناس, ويحفظون سلطانهم من الاندثار.

الأرثونكسية، هي العلاقة بين الكنيسة والحرب كقتل المسيحي للمسيحي باسم المسيحية هي الجريمة بعينها ويجب أن تدان. زعماء الكنيسة كانوا يقبلون كل جرائم القتل هذه كأنها نتائج لابد منها للمحافظة على الإيمان. ولم يكن القتل في الحرب وحده مقبولاً في الكنيسة، بل كان قتل المتمردين والثائرين من الشبان على التقاليد الرثة البالية محرماً في نظر أكثرية من عرفت من أعضاء الكنيسة ومعلميها ورهبانها ونساكها. ولذلك نظرت إلى كل ما يجري حولي من الحوادث الفظيعة التي كان يقوم بها رجال يدعون المسيحية فارتعدت في أعماق قلبي.

من أهم ما يقدمه اعتراف تولستوي أن:

الحياة الروحية تُعاش لا تلقن.

وكسب الحياة يكون بخدمة الناس لا باعتزالهم.

وفهم الكتاب المقدس هو بحرية العقل ونقاء القلب لا بالترديد.

أقرب وصف فني درامي لهذه الاعترافات هي اللحظات الأخيرة من حياة تولستوي، أطلبوا إلى تولستوي أن يتوب عن أخطائه تب إلى خالقك يا تولستوي ... قبل أن تمثل أمام المحكمة الربانية. " تلك الرسائل والبرقيات لم تظهر إلا في اللحظات الأخيرة من حياة تولستوي, في سكة القطار! قبيل وفاته بدقائق قدم رئيس القساوسة، ومعه تكليف من القيصر بالدخول إلى الكونت تولستوي ليتلقى اعترافاته في ساعاته الأخيرة. ما إن سمعت صوفيا زوجة تولستوي بذلك حتى تركت مقصورتها متجهةً نحو مكتب ناظر المحطة :"لن أسمح لأحد أن يدخل على زوجي ليزوّر عليه فيما بعد ما لم يقُل.. اطردوا هذا القسيس من استابوفو ."

طلب القس الدخول في غرفة تولستوي لتلقي اعترافاته قبل موته، لكن ساشا, ابنة تولستوي, خرجت بكراسة أبيها وهي تصيح في وجه الجميع: " اللعنة على من يريد أن يرغم أبي على ما لا يريد. إليك أيها المحافظ ما كتب أبي عن ذلك حين اشتد به المرض, واسمع أنت أيها القس المأجور, اسمعوا ماذا كتب أبي لتريحوا أنفسكم من تلقي اعترافاته, ثم أخذت تقرأ أمام الحشود التي صمتت احتراماً لكلمات الكاتب الكبير.

"حين يحوم الموت حول رأسي فلا أريد أن يقتحم لقائي مع ربي أحدٌ من رجال الدين, أريد أن أقترب من خالقي في فيضٍ من نور المحبة, وليس مع ثرثرة كهنوتية ".

بعد كل هذا النور والتجلي الكبير من تولستوي, هل وصف دستويفسكي لتولستوي " بالمعلم الكبير " يحمل كل الحقيقة والصدق؟

هو معلم كبير بلا شك!

بعد ظهور الاعترافات أعلن ممثلو نقد علم الجمال الذين باركوا العبقرية الفنية لكاتب الحرب والسلم و آنا كارينينا أن تولستوي الأخلاقي قد قتل تولستوي الفنان! وممثلوا الحركة الاجتماعية تحدثوا كذلك عن وجود ازدواجية بين تولستوي المفكر وتولستوي الفنان! فأي حقيقة تلك التي أوجبت على ممثلي علم نقد الجمال والحركة الاجتماعية أن ينتقدوا تولستوي المفكر وداعية السلام، ويرثون تولستوي الفنان الذي قتل بعد الاعترافات حسب تعبيرهم؟ وما علاقة كل هذا بالفن والجمال؟

على أرض الواقع تولستوي قبل الاعترافات مختلف كل الاختلاف عن تولستوي بعد الاعترافات – في إطار الأدب بالتحديد–. إذا كان التغيير قد طال الفكر ونظام الحياة بشكل كامل، فما يضير الأدب لو تغير معه كذلك وأصبح مرآة لحياة هذا الروسي الكبير؟ الفن الذي أعلن ممثلوه أن تولستوي قتله يرى بعد الاعترافات أن الفن مبني على أن الإنسان الذي يتلقى بوساطة السمع أو البصر أحاسيس إنسان آخر، بوسعه أن يعاني من تلك الأحاسيس نفسها التي عاناها الإنسان الذي عبر عنها. إنه يعلن أن الفن اتجه للواقع وتخلى عن النظرة الرومانسية، وأصبح الفن يقوم بدور التوصيل والنقل والتعبير، والفن هو نشاط إنساني يكمن في أن يقوم إنسان ما بوعي وبوساطة إشارات خارجية معروفة بنقل الأحاسيس التي يعاني منها إلى الآخرين.

يرى تولستوي في كتابه ما هو الفن أن وظيفة الفن تتلخص في أن يبعث في المتلقي شعوراً يشبه الشعور الذي أحس به المبدع نفسه، ويرى أنّ انتشار العمل الأدبي هو مقياس لأصالته وجودته، أما اقتصار الفن على طبقة الأغنياء فدليل على زيفه وعدم أصالته، فالعمل الأدبي الغير المفهوم يشبه الطعام الشهي الذي لا يتقبله معظم الناس. العمل الأدبي الجيد هو العمل المفهوم من قبل الفلاح البسيط. ولذلك فهو يستبعد الأعمال الأدبية التي تسد فراغ الطبقات المترفة، والتي لا تخدم الفلاحين. ولا يكتفي تولستوي بذلك، إلى درجة أنه استبعد إحدى روائعه مثل آنا كارينينا لأن الفلاح لا يستطيع قراءة رواية تقع في ثلاثة مجلدات. فلجأ تولستوي إلى كتابة الحكايات الشعبية القصيرة المفهومة من قبل الفلاحين، فهو لا يطلب من الفلاح البسيط الارتقاء إلى مستوى الأدب الرفيع، بل يطلب من الأديب أن يكتب أعمالاً مفهومة من قبل الفلاحين. وبالتالي، فبرأيه أن الحكايات الشعبية البسيطة وأغاني الفلاحين هي أهم من روائع الأعمال الأدبية.

بعد قراءة اعترافات تولستوي بدأت بقراءة هذه المجموعة القصصية لتولستوي: سيروا في النور وثلاثة وعشرون حكاية. Walk in the Light and Twenty-Three Tales. ينقسم الكتاب بين قصص قصيرة وقصص طويلة وحكايات للأطفال وقصص من التراث الشعبي، ومن حكايات الجآن، وحكايات للسينما وحكايتين مقتبسة من كتاب فرنسيين.

لا يوجد أجمل بعد أن تكتشف تولستوي المفكر بعد الاعترافات أن تتعرف على تولستوي الأديب عبر هذه المجموعة المذهلة. تولستوي ينزل من الأعلى، من الطبقة الراقية في أعماله

الضـــخمة إلى الفلاحـــين والفقـــراء. إذا كانـــت الاعترافـــات هـــي الخـــط الفكـــري لتولســـتوي، فـــإن هـــذا الكتـــاب هـــو الخـــط الأدبي لهـــذه الاعترافـــات. جميـــع تســـاؤلات وحـــيرة تولســـتوي المطروحـــة في الاعترافـــات هـــي نفســـها الموجـــودة في هـــذه القصـــص القصـــيرة المميـــزة. تولســـتوي موجـــود في بعـــض شخصـــيات هـــذه القصـــص، قصـــة اصـــطياد الـــدب ليســـت إلا مغـــامرة تعـــرض لهـــا تولســـتوي نفســـه عـــام 1858م، ثم بعد أكثر من عشرين سنة أقلع عن الصيد لأسباب إنسانية.

بشـــكل عـــام: لـــن أقـــول بـــأن القصـــص قـــد راقـــت لي أو لم تعجبـــني بعضـــها، بـــل ســـأقول وأنـــا علـــى يقـــين بـــأن هـــذه المجموعـــة القصصـــية هـــي أجمـــل مـــا قـــرأت في فـــن القصـــة القصـــيرة علـــى الإطـــلاق. الأفكـــار العامـــة في هـــذه القصـــص محصـــورة في الجوانـــب الأخلاقيـــة والاجتماعيـــة: الســـعادة العائليـــة والزوجيـــة، الإيمـــان بـــالله، والبحـــث عـــن الله، والتحلـــي بـــأخلاق المســـيح والســـير علـــى طريقـــه. أعتقـــد بـــأن بعـــض القـــراء ســـوف يرفضـــون أو يتحفظـــون علـــى قـــراءة قصـــص مليئـــة بـــالوعظ الـــديني لديانـــة أخـــرى. أنـــا لم أجـــد مـــا هـــو مختلـــف في الـــوعظ القصصـــي لتولســـتوي بـــين الـــروح الدينيـــة الإســـلامية أو المســـيحية. عنـــاوين القصـــص بســـيطة وتعطـــي تأويـــل محصـــور بـــالفكر الـــوعظي في قصـــص تولســـتوي مثـــل: ســـيروا في النـــور مـــادام لكـــم النـــور، الله يـــرى الحقيقـــة ولكـــن يتـــأنى، بم يحيـــا الإنســـان، حيـــث تكـــن المحبـــة يكـــن الله، الشـــر يغـــري لكـــن الخـــير أبقـــى .. الخ. وفي مقـــدمات هـــذه القصـــص يقتـــبس تولســـتوي بعـــض الآيـــات مـــن الإنجيـــل للتـــدليل علـــى قضـــيته، وغالبـــاً مـــا تكـــون هـــذه الآيـــات تـــدعو للخـــير والمحبـــة. قصـــة بمـــا يحيـــا الإنســـان مـــثلاً بـــدأت بســـت آيـــات مـــن الإنجيـــل: وأمـــا مـــن كـــان لـــه معيشـــة العـــالم، ونظـــر أخـــاه محتاجـــاً، وأغلـــق أحشـــاءه عنـــه، فكيـــف تثبـــت محبـــة الله فيـــه؟ لا نحـــب بـــالكلام ولا باللســـان، بـــل بالعمـــل والحـــق .. الله محبـــة، ومـــن يثبـــت في المحبـــة يثبـــت في المحبـــة والله فيـــه

.. إن قال أحد إني أحب الله، وأبغض أخاه، فهو كذاب، لأن من لا يحب أخاه الذي أبصره، كيف يقدر أن يحب الله الذي لا يبصره؟ .. الخ.

في قصة طريق النور يستخدم تولستوي أسلوب التوازي لإبداء المتناقضات، سعادة بمفيليوس وتعاسة يوليوس. في زمن أحد أباطرة روما الخمسة تراجان تجري حكاية هذه القصة في بداية صعود الديانة المسيحية. يوليوس في بداية القصة يطرح تساؤلات تولستوي في كتاب الاعترافات: من أنا؟ إنسان يبحث عن السعادة ولم يجدها. يعتزم يوليوس الذهاب إلى مكان مخصص للمسيحيين حيث يقيم فيه صديقه العزيز بمفيليوس للبحث عن أسباب السعادة، وفي كل مرة يريد الذهاب إليه يصطدم بأحد المثقفين الرومان، الذي يصده عن طريقه ويرده إلى الفكر الروماني والحضارة الرومانية بفنونها وعلومها. السعادة موجودة في هذه الحضارة وليس في مكان أغلب سكانه ينكرون الذات حسب تصور هذا المثقف! القصة تحمل فكر فني وفلسفي رفيع، من يقرأ أعمال تولستوي الكبيرة السابقة سيجد روح تولستوي الروائية بكثرة، خاصة بالحوارات الفكرية المميزة التي يتميز بها هذا الروسي.

قصة أخرى من القصص الشعبية أثارت إعجابي, وهي قصة بم يحيا الإنسان؟ هذه القصة عميقة جداً. أسلوب طرح القصة – وهذا هو الشيء المثير – بسيط جداً وواضح. القصة تدور في منزل سيمون الإسكافي. في طريق عودته يجد إنسان غريب جداً، يذهب هذا الغريب إلى منزل سيمون وتدور أحداث هذه القصة في منزل سيمون لست سنوات. هذا الرجل في الأخير لم يكن إلا ملاك عصى الله. كانت معصية هذا الملاك أن الله أرسله ليقبض روح امرأة مريضة، بعدما وضعت قبل ساعتين بنتين توأمين. لم يطع الملاك إرادة الله، فعاد إلى السماء وقد أثاره منظر الأم وهي تجذب أطفاله إليها. حينها، يؤُمر هذا الملاك بالعودة للأرض لقبض روح هذه

المرأة، ولكي يتعلم ثلاثة حقائق عميقة: ماذا يسكن داخل الإنسان؟ وما لم يعطه الإنسان ؟ وبما يحيا الإنسان ؟

قصة أخرى مثيرة بفكرتها وبنيتها القصصية وهي قصة إيفان المغفل. إيفان رجل مغفل بكل ما تحمله الكلمة من معنى, طريق سعادته ونور حياته هي الفلاحة وعدم رد أي محتاج، أي محتاج أياً كان! يستطيع بفترة وجيزة أن يحكم مملكة كبيرة تضم أناس من أفكاره وشخصيته. إنه مثال للمسيح الروسي، يسير على خطى المسيح: باركوا لاعنيكم, صلوا لأجل أعدائكم ولأجل مضطهديكم، أحبوا من يبغضونكم، إذا لطمك أحد على خدك الأيمن فحول له الخد الآخر، فتكون كاملاً، وإذا أجبرك أحد على السير معه ميلاً واحداً فسر معه ميلين. هل يستطيع إيفان أن يتأقلم مع عالم فيه من الشر الكثير؟ هذا ما ستجيب عنه القصة المليئة بالإثارة والسخرية، حين يغزو أحد الملوك أرض إيفان، ينتصر إيفان رغم أنه لم يملك أي قطعة سلاح، يعلن عليه الشيطان الحرب وينتصر مرة أخرى بجنود لا يحملون أي قطعة سلاح، في مواجهة الحروب تجد هؤلاء المغفلين ينشدون الأناشيد الشعبية. القصة فيها سخرية حادة وذكية، من قرأ رواية الأبلة لدستويفسكي سيجد شخصية إيفان المغفل مشابهه جداً لشخصية الأمير ميتشكن، الرجل الطيب، المسيح الروسي حسب تصور دوستويفسكي[1].

[1] سيقمند، تولستوي و الشرق، موسكو،1981 ص80-89.

## اعترافات تولستوي: رحلة البحث عن الله

أتذكر جيداً ذلك الشعور الغريب الذي انتابني عند قراءة إحدى ملاحظات مكسيم غوركي عن تولستوي. يقول غوركي: صعقني قول غريب في اليوميات التي أعطاني إياها تولستوي, تلك العبارة هي الله هو أمنيتي. حينما استوضحته عن معنى هذه الأمنية قال: فكرة غير مكتملة, لا بد أني قصدت إلى القول, الله هو أمنيتي كيما أدركه .. لا , ليس هذا .. . كان تولستوي حسب تصور غوركي ومن أحاديث جانبية بينهما تشغله فكرة الله حتى تكدر صفاء ذهنه. يقول تولستوي في بعض أقواله المذكورة في ملاحظات غوركي: ماذا نقصد عندما نقول أننا نعرف؟ أعرف أنني تولستوي, ولي زوجة, وأولاد, وشائب الشعر, وقبيح الوجه, ولي لحية. وهذا كله مدون في جواز سفري. ولكنهم لا يدلفون إلى الروح في جوازات السفر! كل ما أعرفه عن روحي أنها تتوق إلى الاقتراب من الله. لكن ما هو الله ؟ هذا الذي روحي هي ذرة منه. هذا هو كل شيء!

هذا الملاحظات أصبحت صور تمر في ذهني كلما مر اسم تولستوي في أي قراءة. أتخيل وجه مكسيم وهو يسأل معلمه عن هذه الأمنية الحلم, فيرد وجه الشيخ الكثيف اللحية, المعتمر قبعة الفلاحين, بابتسامة عريضة تنسي المحاور الآخر السؤال برمته, وما إن يلتفت إلى الخلف, تطفر منه دمعة كشخص ساذج, ويولي هارباً حتى تشتعل هذه الأمنية كبركان على وشك الانفجار.

هذه الملاحظات لم أعرف ماذا تشكل على وجه الحقيقة في حياة تولستوي, المفكر والأديب المشهور. دستويفسكي في أغلب أعماله الكبيرة, وحتى في كتب السير الذاتية, يعطي توضيح حاد لرحلته إلى الله والإيمان: لقد وصلت إلى الله عبر طريق طويل وشائك من الإلحاد والشك الكبير. قرأت رائعة آنا كارينينا قبل فترة, وكانت أول عمل كامل لتولستوي أتم قراءته بالكامل. كنت أتمنى أن أجد تفسير في الرواية لهذه الأمنية التي تراود تولستوي في دفاتر يومياته, ولكن لم أجد إلا حيرة مضاعفة بسبب شخصية قسطنطين ليفين, والذي عبر عن أكثر أراء تولستوي غموضاً. ليفين: تلك الشخصية التي لم تكن إلا تولستوي نفسها بكل تطرفها. كتب تولستوي عن نفسه في هذه الرواية وعبر عن أكثر آراءه بشكل حاد. من سيقرأ بعض ما كتب في يوميات تولستوي المنشورة في صور أدبية لمكسيم غوركي سيجد أغلب أفكاره مطروحة في شخصية ليفين. من أنا؟ وما هو هدف حياتي؟ والأهم: أين الله؟ من هو الله؟ وكيف أحيا بوجود الله؟ ما هو الوجود؟ ولماذا أنا موجود؟ هذه الأسئلة لإنسان مغرق في الشك – وملحد – كانت ذا تأثير عميق في الرواية, وتفنن تولستوي بتصويرها بأروع ما يكون التصوير الفني. ولكن, وهذا السؤال هو الأهم: من أين

ظهرت هذه الأمنية؟ وما دلالتها في حياة تولستوي الأدبية والفكرية؟ وأخيراً: هل تحققت أمنيته؟ هل عرف الله كما تتمناها روحه؟

لمعرفة الجواب يستلزم أن تقرأ أكثر, أن تعرف سيرة حياته، وبشكل خاص مسيرة تولستوي الفكرية. كانت مهمة البحث عن أجوبه لهذه الأسئلة ليست بالسهلة على الإطلاق. كتب البيوغرافيا التي تحدثت عن تولستوي لم تستطع الإجابة عن هذه الأسئلة بالتفصيل. الناقد الروسي ك. لومونوف عبر كتابه صفحات مجهولة من حياة تولستوي يقدم سيرة أدبية رائعة ومشوقة لتولستوي. الجانب الأدبي طغى على الجانب الفكري مما سبب غموض أكثر بالنسبة لي. لومونوف يقدم لي تولستوي الأديب, صاحب الروائع الخالدة : الحرب والسلم, آنا كارينينا, البعث, أنا لا أريد تولستوي هذا, أريد تولستوي صاحب الأمنية الكبيرة: الله هو أمنيتي.

دائماً ما أجد أقوال دستويفسكي عن تولستوي موفقة وتصف الحالة العامة لتولستوي على وجه الدقة, هو لا يتكلم كثيراً ولا يرفع منافسه لمستوى أكبر منه, رغم أنهما منافسين شرسيين. حينما يقول أن آنا كارينينا هي أعظم رواية روسية فهو صادق. آنا كارينينا هي أقرب لمسمى الرواية أكثر من أي عمل روسي أخر. أما حينما يقول أن أمثال تولستوي هم معلموا المجتمع، معلمونا، ونحن مجرد تلاميذ لهم, فذلك يستلزم البحث لتعرف لماذا وصف دستويفسكي منافسه الشهير بوصف المعلم الكبير؟ وهل لهذا الوصف والتبجيل علاقة بأمنية تولستوي؟

لن يستطيع أحد أن يحلل ويفسر لي أمنية تولستوي أكثر من تولستوي نفسه, عبر كتابه الشهير اعترافات تولستوي A Confession and Other Religious Writings . ولكن المصيبة أن الكتاب غير متوفر في المكتبة العربية حسب علمي المتواضع. قررت شراء الكتاب في أقرب زيارة للخارج, وها هو كتاب الاعترافات بين يدي الآن, مع نهاية هذه السنة أجد هذا الكتاب أكثر الكتب تأثيراً عليّ حتى الآن!

اعترافات تولستوي .. صدر هذا الكتاب عام 1879م, أي بعد صدور آنا كارينينا بفترة ليست بالطويلة. إن كان تولستوي أراد أن يكون ليفين هي الشخصية التي تعبر عن أرائه الفكرية بشكل يحمل بعض الغموض, فإن كتاب الاعترافات أزال هذا الغموض بشكل كبير, وأعلن صاحبه أن هذه الشخصية هي جزء منه, جزء من قلبه الذي بحث عن الله والإيمان, ولا يعرف حتى الآن أي طريق سيسلك لتحقيق هذا الحلم.

.................

أني أرثي بحق للمكتبة العربية التي لا تحتفل بمثل هذه الكتب المليئة بالروحانية والنور. كان تصوري أن الكتاب مملاً كعادة بعض المؤلفين حين يكشفون عن أنفسهم ويعرون أرواحهم أمام الملأ, مع تولستوي الأمر مختلف : سأكشف لك كل أسرار حياتي لكي تعلم, أن رحلتي للبحث عن الله الخالق ليست بالهينة. لقد حاول الكاتب في أعنف مراحل حياته الفكرية الإبتعاد عن أي شيء مادي قد يتسبب في موته, أنه يهرب من الحبال مخافة أن يشنق نفسه, وقاوم نفسه العاشقة للصيد, أن يمسك سلاحاً نارياً مخافة أن يطلق النار على نفسه, ويتخلص من هذا النار المحترقه في عقله, وقلبه!

تولستوي الشاب, في أولى مراحل حياته تحرر من كل ضروب العبادة والإيمان التي تعلمها من الصغر. الطبقة النبيلة التي ينتسب إليها كانت ذا تأثير عميق في تلك الفترة, يلخص تولستوي مركزهم بأن نور المعرفة والحياة قد أذاب قصور الإيمان المصنوعة من الشمع في أعماقهم, فأدرك فريق منهم حقيقة الأمر وتخلصوا من الإيمان, ولكن الفريق الآخر ظل متعامياً عن هذه الحقيقة فلم يشعر بها. بعد هذا التحليل لإيمان الطبقة النبيلة, يعترف تولستوي في بداية اعترافاته بأن الإيمان المغروس في أعماقه قد زال بشكل كليّ, ولم يكمل السادسة عشر حتى انقطع عن الصلاة. هذا التحول من الإيمان إلى الإلحاد تسبب بأزمة وحيدة هي الأزمة الروحية لكل حياة تولستوي: الله !

تولستوي لم ينكر وجود الله, ولكن لم يعرف من هو هذا الإله الذي لم ينكر وجوده. في عمر الخامسة عشر بالتحديد بدأ بقراءة كتب الفلاسفة . تحولت حياته بعد أن تخلص

من كل ضروب الإيمان, إلى الحصول على أسمى مراتب الأخلاق الصالحة : الطموح, القوة, الحصول على الربح, الكبرياء, الغرور, الغضب والإنتقام. تلك كانت عقيدة هذا الشيخ الروسي العتيد. أصبح بإستسلامه لهذه الأهواء ممثلاً ومماثلاً لأبناء طبقته النبيله.

تولستوي يعري تلك الأيام السوداء من حياته :" قتلت الكثيرين في الحرب, بارزت الكثيرين لأفقدهم حياتهم, خسرت أموالاً كثيرة بالمقامرة, وأنفقت الأموال الكثيرة التي وصلت إليّ بأعراق الفلاحين, قاسياً عاتياً مع معاملة خدمي, لم أترك سبيلاً من سبل الفسق إلا وسلكته, الكذب, والسرقة, والزنا, والسكر, والتمرد, والقتل, كل هذا جزء من حياتي في تلك الأيام, فليس في قاموس الجرائم جريمة واحدة لم أرتكبها, ولكنني كنت مع كل ذلك مكرماً محترماً من أبناء عشيرتي".

هذه الاعترافات مخيفة, كيف برجل وصل إلى قمة مجده الأدبي أن يعلن بصراحة أن كل هذه السيئات قام بإرتكابها, هل هي تخاريف رجل كبير في السن, أم كشف معالم النفس أمام الجميع .. كل هذا لا يهم, المهم هو الطريقة التي يكشف فيها تولستوي سيرة حياته المظلمة. هو يسلك طرق الظلام ليصل إلى النهاية, إلى النور. هو لا يفصل سيرة حياته المظلمه كما فعل محمد شكري في الخبز الحافي, هي فترة وأنقضت, ولا سبيل لإعادة أحيائها من جديد. تمنيت لو أن محمد شكري سلك طريق تولستوي في كتابة السيرة الذاتيه, وقدم مختصر حياته المظلمة, ثم يرحل بعيداً إلى الطريق الذي أنار إليه معالم الحياة كما في الجزء الثاني من ثلاثيته " الشطار ".

تولستوي المفكر, والمقبل على الأدب والمجد يسلك في السادسة والعشرين منهج الأدب والشعر لكي يعوض فقدان الإيمان الذي تخلص منه. لقدر ارتحل إلى بطرسبروغ وانضم إلى جماعة الكتاب : تلك الجماعة التي تؤمن بأن واجبهم في الحياة كمفكرين فنانين وشعراء أن يعلموا الناس الطريق الصحيح, وتصبغ أفكارهم بصبغة أفكارهم. أني أستغرب كيف سقط تولستوي تحت فكر هذه الجماعة وهو الهارب من سلطة رجال الدين الأرثوذكس. السبب لن يكون إلا في الفكرة الشعرية الجذابه,

والشعور بالفراغ الروحي. لو تخلص تولستوي من الشعور بالجاذبية تجاه هذه الجماعة, وفكر مثلما يفكر في السنة الثالثة لأعلن كفره بهذه الجماعه المتخاصمة, الماكره : "الأكثرية الساحقة منهم في مستوى أكثر انحطاطاً من المستوى الذي عاش فيه رفقائي في العسكرية, كنا نمثل رواية كامل أبطالها مجانين من الدرجة الأولى".

يطلق على هذه الفترة من حياة تولستوي الفكرية, مرحلة الفن والشعر. لم تستمر هذه المرحلة أكثر من ستة سنوات, لم يتقبل عقله فكرة تعليم وتثقيف الناس وهو لا يعرف حتى الآن ما هية الخير والشر, ومدى ارتباط الاخلاق بالخالق. المرحلة الثانية هي المرحلة التقدمية. تأثيرات هذه المرحلة بدأت بعد مغادرته إلى أوروبا للتعرف على عظماء مفكريها وعلمائها. من أبسط الأشياء تولد ردات الفعل العنيفة. فكرة العيش من أجل الناس والتقدم العام فكرة جذابه للجميع, لا يستطيع أحد أن يرفض فكرة التعليم والتثقيف من أجل الجميع, هدف العيش الآن أصبح من أجل التقدم العام. ولكن منظر الرؤوس الساقطة على الأرض بسبب آلة الإعدام ضرب هذه الفكرة في وقت حرج, ما من نظرية محددة ولا عقائد مقررة من بدء الخليقة إلى الآن تبرر قطع الرؤوس حسب تعبيره. ثم موت أخيه ديمتري المرير, الذي مات مريضاً وهو لا يعلم لماذا عاش في هذا العالم, جاهلاً الموت كل الجهل, رغم قلبه الرقيق, وهدوئه ورصانته.

التقدم يجب أن ترافقه الحرية والعقل, قد يكون هذا التبرير هو طمس لمعالم الرأس الذي سقط على الأرض, والنفس التي رحلت ولا تدري ماهو الموت على حقيقته. عاد تولستوي إلى روسيا بعد تحرير العبيد. أصبح قاضياً, وعمد إلى تعليم غير المتعلمين بواسطة المدارس والصحافة. مرت حادثة ساعدته على نسيان أمنيته مؤقتاً : زواجه من صوفيا آندريفنا. قادته السعادة التي وجدها في حياته الزوجيه إلى الهرب من السعي وراء إدراك معنى الحياة. على هذه الصورة عاش خمسة عشر سنة, ولم يعرف أن في نهاية هذه السنين ستعود هذه الأسئلة بشكل أكبر وأعنف : "لماذا تعيش؟ وماهي الغاية من حياتك؟". هذه الأسئلة القلقة كانت تمطر عليّ بكثرة عند قراءة آنا كارينينا عبر شخصية ليفين. :" حسن وجميل, لدي مساحة أرض كبيرة, وثلاثمائة حصان, و .. لكن مالفائدة من كل هذا؟ مالفائدة إذا صرت أشهر من فولتير وبوشكين وموليير وغوغول .. هذا جميل ولكن ماذا بعد؟". هذه الأسئلة كالشبح القاتم يردد بصوته

الراعب, لماذا تعيش! هي ليست أسئلة صبيان بسيطة, بل هي الحقيقة الشاملة لأعمق أسرار الحياة البشرية, وهو عاجز أن يجيب على أي سؤال من هذه الأسئلة :

"لم يبقى لي عذر للحياة, يجب أن أموت!".

الموت : أحد الثيمات المفضلة في كتابات تولستوي الأدبية. هو يختلف عن غيره من أدباء العالم في تصوير الموت. فيكتور هيجو يبجل الموت عند موت أحد شخصياته, الموت هو طريق الحرية والكمال الأعظم, ولذلك يصوره بشكل هادئ وسلس. تولستوي عند تصويره للموت يستخدم كل أسلحته المرعبه لتصوير هذا الأسود القادم. أتذكر جيداً تلك الصفحات التي أفردها لموت نيقولاي في رائعة آنا كارينينا, كانت أكثر من ما يقارب ثلاثين صفحة كلها تعذيب وموت لهذا الرجل المريض بالسل, ولكن الأعنف .. الموت الحقيقي, من يريد أن يعرف الموت الحقيقي عند تولستوي عليه أن يقرأ تلك القطعة الخالدة من أدبه, عندما يصور آنا وهي تائهه, خارجة عن نطاق الوعي, تخرج من المنزل وهي تلعن عشيقها التي ضربت من أجله مجتمعها وعائلتها عرض الحائط, ثم تنظر إلى أحوال الناس في الطريق إلى محطة القطار, تضحك وتبكي على حالها, وفي الأخير, عند آخر ظهور لهذه الشخصية الجحيمية, لن تقول أكثر من : ياألله. بقدر قوة الألم في هذا التصوير: من أين لتولستوي هذه القدرة المرعبة على تصوير هذا الموت بهذا الشكل العنيف والدرامي؟

للإجابة على هذا السؤال يجب العودة لاعترافات تولستوي التي كشفت حقيقة الموت لديه. في فيلم "Anna Karenina - 1997" يقتبس المخرج حكاية من التراث الشرقي القديم كنقطة بداية لهذه الملحمة. يبدأ الفيلم بتصوير الموت بطريقة رمزية, كان ليفين يهرب في الريف, يحاول النجاة بنفسه من الذئاب التي تطارده, والتي هي بدورها الأسئلة المقلقة في الرواية والاعترافات, ثم يسقط في حفرة, ويتمسك بجذع شجرة قبل السقوط, ولو سقط, لوجد الموت الذي يفر منه, لأن أحد الحيوانات المفترسة اتخذ من الحفرة مصيدة للبشر. قبل هذا المشهد يبدأ السرد في الفيلم من ليفين, يقول بما معناه " دوماً في أحلامي أتعلق بفرع شجرة, وأدرك تماماً أن الموت حتما ينتظرني, الخوف من الموت بدون معرفة الحب, كان أقوى من الخوف من الموت نفسه. أعرف الآن أني لم أكن لوحدي في رعب هذا الظلام, وكان أيضاً خوف آنا كارينينا" . هذه الشجرة التي تعلق بها يوردها تولستوي في اعترافاته, فيما هو متمسك بجذع الشجرة

يرى جرذين يقرضان الجذع بكل همة ونشاط, فكر هذا الرجل المتسك بجذع الشجرة بأنه ساقط لا محالة, ولكنه نظر في الوقت نفسه بضع نقاط من العسل على جذع الشجرة, فمد لسانه وشرع يلحسها متناسياً شقاءه كله !

" هكذا أنا أتعلق بغضن شجرة الحياة, عارفاً أن تنين الموت ينتظرني, وهو على استعداد ليمزقني ارباً ارباً. كانت فكرة الإنتحار تخطر لي في كل يوم وحين, إنني أكره الحياة ولا أريد أن أعيش! ولكن خوفي من الموت كان يضطرني إلى استنباط الحيلة ضد نفسي لكي لا أضع حداً لحياتي. كانت حياتي أضحوكة جنونية موجهة إلي من شخص لا أعرفه, ومع أنني لم أكن أعترف بوجود هذا الشخص الذي يقولون أنه خلقني, فإن النتيجة القائلة بأن هذا الشخص قد ضحك عليّ بجنون وسخرية عندما خلقني في هذا العالم كانت تظهر ليّ كأنها أصدق ما في الحياة من النائج الطبيعية".

- من أنا ؟ وما هو الوجود ؟

- كل شيء . ولا شيء !

- لماذا وجدت هنا؟

- لا أعرف !

- ما مصير حياتي ؟

- لا شيء !

إنه أشبه برجل ضائع في غابة, يقبل على سهل فسيح, فيتسلق شجرة وينظر من أعلاها سهولاً واسعة لا تقف العين على آخرها, ولا مأوى يلجأ إليه فيها, يرى كل هذا فيدرك أن ليس فيها أحد ينقذه, فيرجع إلى ظلمة الأسئلة. انتهت مرحلة الشعر والفن, ومرحلة التقدم, وبدأت مرحلة الفلسفة للإجابة عن هذه الأسئلة, فأي أجوبة تلك التي تقدر على نسف هذه الأسئلة وطمس معالمها من قلبه بشكل كامل. إن الفلسفة بكامل علومها لا تستطيع أن تقدم له أجوبه أكثر مما أجاب عليه. لو كان الأمر متعلق بأحد

مسائل فروع المعرفة البشرية لوجد إجابة عن : التركيب الكيميائي للمواد, حركة الشمس, الذرات الصغيرة. ولكن الجواب عن تفسير معنى الحياة العام لم يكن إلا هروب من السؤال نفسه :" الوجود أبدي وخالد وغير مدرك, وحياة الإنسان جزء صغير غير مدرك من الوجود الكلي الغير مدرك". بأجوبتها الغارقة في التحليل الفلسفي تبرهن أن هذه العلوم لا تقدر أن تجاوب على هذا السؤال الكبير, بل تقضي على كل رجاء في القلب لمعنى يستحق أن يعيش من أجله الإنسان.

بعد أن فشل في كل المراحل: الفن والشعر, التيار التقدمي, الفلسفة, شرع ينشد الإجابة من نفس المكان, من الحياة نفسها! ولكن كيف بوجود أبناء هذه الطبقة النبيلة البعيدة كل البعد عن إثارة هذه الأسئلة فقط. إنهم يهربون منها بشعور أو بغير شعور عبر أربعة وسائل حسب تصنيف تولستوي: الوسيلة الأولى الجهل الذي يضرب أسس هذه الطبقة, هم لا يرون الوحش الذي ينتظرهم ليفترسهم. وسيلة الهرب الثانية هي التي يلجأ إليها الشهوانيون وعباد أهوائهم الجامحة, على هذه الصورة يقضي أبناء هذه الطبقة, توضح لهم الجميل وتحجب عن أعينهم القبيح. الوسيلة الثالثة هي القوة والعزم, عدم الوجود خير من الوجود, يجب وضع حد لهذه الحياة بالإنتحار:" حبل حول العنق أو ماء يغرقون فيه, أو قطار يقفون في طريقه فيذهب بهم ويريحهم من شقائهم, أن عدد الذين يقدمون على هذا العمل من أبناء هذه الطبقة يتزايد في كل يوم". والوسيلة الرابعة هي الضعف, الاستسلام لهذه الحياة رغم معرفتهم بأنها عقيمة لا جدوى منها. بمثل هذه الطرق ينقذ أبناء الطبقة الراقية ذواتهم من تناقض مزعج في الحياة.

ينقسم الكتاب في نهاية الفصل السابع إلى قسمين, القسم الأول مخصص للبحث عن إجابة لهذا السؤال؟ ما هي الحياة؟ ولماذا أنا موجود؟ . والجزء الثاني مخصص للأمنية الكبيرة: أين الله ؟

إن كان تولستوي بطبقته الراقية تعيش هذا الخواء الفكري, فما هو المعنى الذي أعطته الحياة للملايين من الناس, الذي عاشوا ويعيشون في هذا العالم؟ أستطيع أن أقول الآن أن شخصية ليفين كانت تعبر عن تولستوي بكل مهارة واتقان, وكما كتب هو عن نفسه

في اعترافاته. الصراع النفسي والروحي يشتعل سريعاً ويثور في أوقات مفاجئة عند ليفين. من قرأ كلمات الفلاح البسيط في رواية آنا فسيعرف بدون أي قراءة لهذه الاعترافات كيف اهتدى تولستوي إلى معنى الحياة :" إنه يعيش من أجل روحه, ولا ينسى الله" .. بالمقارنة بين طبقة تولستوي وطبقة الفقراء والعمال, وجد هذا الرجل المتعطش لليقين شيئاً يختلف كل الإختلاف. حياة الفقراء والعمال مليئة بالتضحية والألم, الإنتحار معدوم فيما بينهم, عن طريق الألم يعرف تولستوي معنى الحياة. هذه المعرفة التي لا سلطان للعقل عليها هي الإيمان الذي لم يتقبله تولستوي. كان مشوشاً فيما مضى لأن المعرفة التي يقيمها العقل تنكر الحياة, والمعرفة التي تمنحها الحياة تنكر العقل, ولكن أكثرية أبناء الإنسان يتمسكون بمعرفة لا أثر للعقل فيها, وهذه المعرفة تثبت لهم أن للحياة معنى سامياً!

في جميع أبحاث تولستوي كان يقابل المحدد بالمحدود, وغير المحدود بغير المحدود, ولذلك كانت النتيجة التي لا بد منها كما يحدث في الرياضيات. يعلن تولستوي أن الأجوبة التي يقدمها الإيمان مهما خالفت أحكام العقل وتمردت على شرائعه فهي تمتاز بأنها تقدم لكل سؤال علاقة بين المحدود وغير المحدود, وبدون هذه العلاقة لا يمكن الحصول على جواب. أصبحت الأجوبة الآن سهلة المنال :

- كيف أعيش؟

- تحت شريعة الله

- هل بعد حياتي شيء حقيقي ثابت؟

- عذاب أو راحة أبدية

- هل في حياتي معنى لا يستطيع الموت أن يذهب به ؟

- نعم, وهو الوحدة مع إله غير محدود في الفردوس.

" مهما تعددت أنواع الأجوبة التي يقدمها الإيمان للإنسان, فإن كل واحد منها يجعل لحياة الإنسان المحدودة معنى غير محدود, معنى لا يزول ولا يفنى مهما اجتمعت

لمحاربته جيوش الآلام والوحدة والموت. الإيمان الحقيقي الكامل هو معرفة معاني الحياة الإنسانية معرفة تحمل الإنسان على محبة الحياة والمحافظة عليها. الرجل الحي يؤمن بشيء, وبغير الإيمان لا يستطيع بشر أن يعيش في هذا العالم, لأن الذي لا يؤمن بأن في الوجود غاية يعيش لأجلها هو ميت بالحقيقة ".

- من أنا ؟

- جزء من غير المحدود

تلك هي القضية بأكملها, ولكن أي إيمان سيتخذه تولستوي لنفسه, إيمان رجال الدين الأرثوذكس؟ أم إيمان الفقراء الذي كان فعالاً في حيرته المجنونة؟ يقول تولستوي في أحد رسائله المنشورة:" بعد سنتين من هذه الحياة مع الشعب, حدث في تحول. إن حياة أمثالي من الأغنياء والمتعلمين لم تبعث في نفسي إلا الإشمئزاز, وبدت لي فارغة من المعنى. ظهرت لي جميع أفعالنا ومشاغلنا الفكرية وفنوننا وعلومنا بمظهر جديد. حينذاك استطعت أن أرى الأشياء جميعاً بوضوح".

سأفصل دخوله في حياة الفقراء والإيمان بهم لأنه جزء مهم في مسيرة تولستوي المعيشية والفكرية. تولستوي في كتابه حياة محمد وشيء عن الإسلام يورد بعض الاحاديث في البداية التي تدلل حب الأنبياء للطبقة الفقيرة, وأن أكثر الناس اتباعاً للأنبياء هم الفقراء, يقول النبي محمد عليه السلام : اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة {3}. وفي حديث أخر يقول لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يفسد إذا كثر عليه الماء, وفي حديث أخر : ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. كان تولستوي معجباً بحكمة النبي محمد عليه السلام, ومن خلال نظامه المعيشي, ودراسة حياة الفقراء العامة وعقائدهم ترسخ في أعماق لبه بأن الإيمان الحقيقي كائن في قلوب هؤلاء الفقراء, وأنهم يعتقدون في أعماق نفوسهم أن هذا الإيمان جزء مكمل لحياتهم وبدونه لا يجدون من معنى لوجودهم على الأرض. إنهم يفرحون بالحياة, راضين بقسمتهم, ثائرين أمام أوجاعهم وأمراضهم, يعيشون ويمرضون ويموتون من غير أن تفارقهم

الثقة بحكمة الحياة. لأجل كل هذا أحبهم تولستوي ودنا منهم, فأصبح يتعلم من حياة الفقراء, فآثر اقتفاء خطواتهم والتحلي بأخلاقهم.

" إنَّ أكثر الأشياء أهمية على هذه الأرض عند كانط هو النظام الأخلاقي الموجود بداخلنا، أو التلقائية الذاتية الأخلاقية the moral autonomy التي تميّز الإنسان و تعطيه قيمته الإنسانية. إنها التلقائية الذاتية التي تجعلُ الفرد يستشعر حريته الكاملة في اختياره الأخلاقي، و رغم ذلك يقوم بالإلتزام بنظامه الأخلاقي الذاتي. إنّ هذا النظام الأخلاقي الداخلي هو أهم شئ في الحياة، و بدونه لا يمكن أن تقوم حضارة أو أي شكل من أشكال التواصل الإنساني" {4} رأى تولستوي بوضوح - كما عبر كانط - أن على الراغب في إدارك معنى الحياة أن يعيش هو نفسه أولاً حياة بعيدة عن الشر ممتلئة بالمعاني الصالحة, وحينئذ تستنير بصيرته فيرى المعنى الحقيقي لحياته. يجب على الذي يتكلم عن الحياة أن ينظر إليها نظرة عامة, ولا يقصر نظره على حشرات دنيئة عليها. إن في الوجود إرادة كلية تدير كل ما فيه من الكائنات, وهذه الإرادة الكلية لا عمل لها سوى العناية بحياتنا وبالوجود الذي نعيش فيه. لكي نرجو إدراك غاية هذه الإرادة يجب قبل كل شيء أن نعمل الواجبات المفروضة علينا, إن لم أقم أنا بقسطي من الواجب في الوجود, فإنني لن أعرف شيئاً عن هذه الإرادة ولا عن الوجود الذي أنا جزء منه!

جميع هذه الاعترافات ورحلة البحث عن معنى الحياة والوجود لم تكن إلا بوابة العبور لتحقيق أمنية تولستوي الكبيرة: الله. ما يدفعه للبحث عن الله ناتج من شعور قلبي, عاطفة قلبية تدفعه للبحث عنه. إذا كنت أنا موجود فلا بد من علة لوجودي, ماهي هذه العلة أو القوة؟ وما هي العلاقة التي بيني وبين الله؟ لم يجد تولستوي رغم انضمامه للفقراء إلا الجواب البسيط :"هو الخالق بارئ كل الكائنات". عادت إليه الشكوك من الجديد, وشرع يصلي بحرارة للإله, بيد أن افراطه في الصلاة لم يزده إلا ثقة بأن صلواته لم يسمعها أحد, ولذلك صرخ من أعماق قلبه واليأس يغمره لعدم مقدرته على الإهتداء إلى الإله الذي يفتش عنه :

" يارب أرحمني وخلصني .. أيها الرب العظيم .. ياإلهي العزيز أنقذني " !

مثل هذه الصرخات الحية صورها تولستوي كذلك في رواية آنا, عندما يصرخ ليفين وهو يسمع عذابات زوجته عند الولادة, وهو الملحد الغارق في الشك حتى في وجود الله نفسه يصرخ من أعماق قلبه :

" يالله أرحمني ".

وهو الذي لم يرفع رأسه منذ سنوات, رفعها من أجل ظهور معجزة هذا الطفل الذي لم يكن قبل ساعة في هذا الوجود. كيف ظهر هذا الطفل إلى الوجود؟ معجزة؟ نمو طبيعي في جسم الإنسان؟ حين أقرأ ليفين وهو ينتظر زوجته التي تعاني آلام الولادة يظهر لي تولستوي الكهل الكبير وهو يتساءل هذه الأسئلة التي يعرف أجوبتها من الطفولة, حين كان يرضع من ثدي أمه :

" أليس هذا دليلاً على أن هناك أماً ولدتني؟ وأعتنت بتربيتي وأطعمتني؟ أين هي تلك الأم؟ أنني لا أستطيع أن أتعامى عن رؤية هذه الحقيقة, وهي أن كائناً أحبني وكان السبب في وجودي؟ هو - بلا شك - الله. هو موجود بالحقيقة وفي كل لحظة أعترف بوجوده, أشعر بأن حياتي قد تجددت, وإيماني بما في الوجود قد نهض من رمسه. إلا أنني لا أستطيع الإيمان بالإله المثلث الأقانيم, لقد ذاب كالجليد أمام عيني. ولكن من أين لي بالشعور الذي يعمل في قلبي ويحملني إلى البحث عن الله! هذا الشعور يختلج في أعماقي. أنني لم أعش في ما مضى من عمري إلا عندما كنت أؤمن بالله. كلما آمنت بالله أشعر بالحياة. كلما أعرضت عن هذا الإيمان أشعر بأنني ميت بالحقيقة. ما أنشده هو الكائن الذي لا تستقيم الحياة بدونه! الله هو الحياة. عش لتسعى إلى الله, لأن الحياة لا تكون بدون الله, بمثل هذا آمنت أخيراً من أعماق قلبي, فشعرت بقوة الحياة الحقيقية. ولم يفارقني هذا النور الذي أشرق على حياتي حتى اليوم! رجعت بالفكر إلى الماضي البعيد, إلى أيام شبابي, آمنت بأن واجب الحياة تقوم بسعي الإنسان ليصير أفضل مما هو عليه, ويعمل ما هو عدل في شريعة هذه الإرادة الكلية, هذه الإرادة التي لا تظهر إلا في الصلاح الذي أجمعت عليه الإنسانية. رجعت إلى الإيمان بالله, وبالكمال الأدبي, وبالتقليد الذي يمنح الحياة معناها الحقيقي".

اعترافات تولستوي, وتحقيق الأمنية لا تنتهي عند هذا الحد. كان هنالك شيء وحيد حول هذه الاعترافات أكسبها شهرة عالمية لم يصل إليها أي كاتب في زمانه. ألا وهي علاقة المؤمنين بالكنيسة ورجال الدين. عندما عاد إليه الإيمان من جديد شارك تولستوي البسطاء في صلواتهم, ومناولة الأسرار المقدسة, والصيام. لم يخلب عقله في القداس الديني سوى هذه الجملة " لنحب بعضنا بعضاً بعزم واحد" وكل شيء, بما فيها الاعتراف بالأب والإبن والروح القدس فأعرض عنها لأنها غير طبيعية. كان الإيمان في بدايته في حياة تولستوي, مما أجبره على مسايرة الكنيسة وعدم الاعتراض على أي شيء قد يعيد إليه أيام الشك الرهيب.

بعد أن عكف على تعلم العبرية واليونانية، ليتّسق له أن يطلع على المنبع الذي صدرت عنه مختلف ترجمات العهد القديم والعهد الجديد. قارن بعضها ببعض وأشار إلى الغموض الذي يحيط ببعض النصوص الدينية وما نتج عن ذلك من تفسيرات متناقضة وانتهى إلى القول أن المسيح نفسه، ليس بإله، ولا يمكن أن يكون سوى إنسان بريء من السمة الإلهية التي يقرن إليها. وهاجم الطقوس الدينية، واتهمها بأنها موضوعة مزيفة، ونظر إلى الكنيسة نظرة تحدٍ ومناجزة، فقد رأى كيف تغلّف القشور الكاذبة فكرة الإيمان، وشرع يفوّق سهامه اللاذعة إلى الكنيسة داعياً إلى دين منزه عن التمويه والتضليل.

نتج عن هذه الأراء الحادة التي كانت تؤذي رجال الكنيسة، قرار اللعن والطرد من الكنيسة الصادر من المجمع الكنسي الأرثوذكسي بحق تولستوي. أولى القضايا التي أوجبت انفصاله عن الكنيسة الأرثوذكسية هي علاقة الكنيسة الأرثوذكسية مع بقية الكنائس المسيحية, كالكاثوليكية والبروتستانت. شغف تولستوي العظيم بالإيمان قاده إلى التعرف بأساتذة كثيرين من طوائف متعددة. أراد أن يكون أخاً لهؤلاء الرجال المؤمنين المخلصين في إيمانهم, لكن النتيجة .. النتيجة أتت مخالفة على عكس ما توقع؟

العقائد التي يخيل أنها تعد بوحدة جميع الناس, بإيمان واحد, ومحبة واحدة, بشخوص أفضل وأعظم ممثليها من رجال الدين يعيشون في الكذب والضلال, مقدرتهم على الحياة حسب تصور تولستوي مستمدة من الشيطان وليس من الله. الإهانة الصادرة من رجل من طائفة " أ " ضد رجل من طائفة " ب " يتهمه فيها بأنه يعيش على الكذب هي أعظم إهانة يستطيع الإنسان أن يوجهها إلى أخيه الإنسان. ممثلي الطوائف هؤلاء يفتشون عن خير الوسائل التي تمكنهم من القيام بواجبات بشرية يبيضون فيها وجوههم أمام الناس, ويحفظون سلطانهم من الاندثار.

..............................................

الأرثونكسية، هي العلاقة بين الكنيسة والحرب كقتل المسيحي للمسيحي باسم المسيحية هي الجريمة بعينها ويجب أن تدان. زعماء الكنيسة كانوا يقبلون كل جرائم القتل هذه كأنها نتائج لابد منها للمحافظة على الإيمان. ولم يكن القتل في الحرب وحده مقبولاً في الكنيسة، بل كان قتل المتمردين والثائرين من الشبان على التقاليد الرثة البالية محرماً في نظر أكثرية من عرفت من أعضاء الكنيسة ومعلميها ورهبانها ونساكها. ولذلك نظرت إلى كل ما يجري حولي من الحوادث الفظيعة التي كان يقوم بها رجال يدعون المسيحية فارتعدت في أعماق قلبي.

من أهم ما يقدمه اعتراف تولستوي أن:

الحياة الروحية تُعاش لا تلقن.

وكسب الحياة يكون بخدمة الناس لا باعتزالهم.

وفهم الكتاب المقدس هو بحرية العقل ونقاء القلب لا بالترديد.

أقرب وصف فني درامي لهذه الاعترافات هي اللحظات الأخيرة من حياة تولستوي، أطلبوا إلى تولستوي أن يتوب عن أخطائه تب إلى خالقك يا تولستوي ... قبل أن تمثل أمام المحكمة الربانية. " تلك الرسائل والبرقيات لم تظهر إلا في اللحظات الأخيرة من حياة تولستوي, في سكة القطار! قبيل وفاته بدقائق قدم رئيس القساوسة، ومعه تكليف من القيصر بالدخول إلى الكونت تولستوي ليتلقى اعترافاته في ساعاته الأخيرة. ما إن سمعت صوفيا زوجة تولستوي بذلك حتى تركت مقصورتها متجهةً نحو مكتب ناظر المحطة :"لن أسمح لأحد أن يدخل على زوجي ليزوّر عليه فيما بعد ما لم يقُل.. اطردوا هذا القسيس من استابوفو".

طلب القس الدخول في غرفة تولستوي لتلقي اعترافاته قبل موته، لكن ساشا, ابنة تولستوي, خرجت بكراسة أبيها وهي تصيح في وجه الجميع: " اللعنة على من يريد أن يرغم أبي على ما لا يريد. إليك أيها المحافظ ما كتب أبي عن ذلك حين اشتد به المرض, واسمع أنت أيها القس المأجور, اسمعوا ماذا كتب أبي لتريحوا أنفسكم من تلقي اعترافاته, ثم أخذت تقرأ أمام الحشود التي صمتت احتراماً لكلمات الكاتب الكبير.

" حين يحوم الموت حول رأسي فلا أريد أن يقتحم لقائي مع ربي أحدٌ من رجال الدين, أريد أن أقترب من خالقي في فيضٍ من نور المحبة, وليس مع ثرثرة كهنوتية."

بعد كل هذا النور والتجلي الكبير من تولستوي, هل وصف دستويفسكي لتولستوي " بالمعلم الكبير " يحمل كل الحقيقة والصدق؟

هو معلم كبير بلا شك!

بعد ظهور الاعترافات أعلن ممثلو نقد علم الجمال الذين باركوا العبقرية الفنية لكاتب الحرب والسلم و آنا كارينينا أن تولستوي الأخلاقي قد قتل تولستوي الفنان! وممثلوا الحركة الاجتماعية تحدثوا كذلك عن وجود ازدواجية بين تولستوي المفكر وتولستوي الفنان! فأي حقيقة تلك التي أوجبت على ممثلي علم نقد الجمال والحركة الاجتماعية أن ينتقدوا تولستوي المفكر وداعية السلام، ويرثون تولستوي الفنان الذي قتل بعد الاعترافات حسب تعبيرهم؟ وما علاقة كل هذا بالفن والجمال؟

على أرض الواقع تولستوي قبل الاعترافات مختلف كل الاختلاف عن تولستوي بعد الاعترافات – في إطار الأدب بالتحديد-. إذا كان التغيير قد طال الفكر ونظام الحياة بشكل كامل، فما يضير الأدب لو تغير معه كذلك وأصبح مرآة لحياة هذا الروسي الكبير؟ الفن الذي أعلن ممثلوه أن تولستوي قتله يرى بعد الاعترافات أن الفن مبني على أن الإنسان الذي يتلقى بوساطة السمع أو البصر أحاسيس إنسان آخر، بوسعه أن يعاني من تلك الأحاسيس نفسها التي عاناها الإنسان الذي عبر عنها. إنه يعلن أن الفن اتجه للواقع وتخلى عن النظرة الرومانسية، وأصبح الفن يقوم بدور التوصيل

والنقل والتعبير، والفن هو نشاط إنساني يكمن في أن يقوم إنسان ما بوعي وبوساطة إشارات خارجية معروفة بنقل الأحاسيس التي يعاني منها إلى الآخرين.

يرى تولستوي في كتابه ما هو الفن أن وظيفة الفن تتلخص في أن يبعث في المتلقي شعوراً يشبه الشعور الذي أحس به المبدع نفسه، ويرى أنّ انتشار العمل الأدبي هو مقياس لأصالته وجودته، أما اقتصار الفن على طبقة الأغنياء فدليل على زيفه وعدم أصالته، فالعمل الأدبي الغير المفهوم يشبه الطعام الشهي الذي لا يتقبله معظم الناس. العمل الأدبي الجيد هو العمل المفهوم من قبل الفلاح البسيط. ولذلك فهو يستبعد الأعمال الأدبية التي تسد فراغ الطبقات المترفة، والتي لا تخدم الفلاحين. ولا يكتفي تولستوي بذلك، إلى درجة أنه استبعد إحدى روائعه مثل آنا كارينينا لأن الفلاح لا يستطيع قراءة رواية تقع في ثلاثة مجلدات. فلجأ تولستوي إلى كتابة الحكايات الشعبية القصيرة المفهومة من قبل الفلاحين، فهو لا يطلب من الفلاح البسيط الارتقاء إلى مستوى الأدب الرفيع، بل يطلب من الأديب أن يكتب أعمالاً مفهومة من قبل الفلاحين. وبالتالي، فبرأيه أن الحكايات الشعبية البسيطة وأغاني الفلاحين هي أهم من روائع الأعمال الأدبية.

بعد قراءة اعترافات تولستوي بدأت بقراءة هذه المجموعة القصصية لتولستوي: سيروا في النور وثلاثة وعشرون حكاية -Walk in the Light and Twenty Three Tales. ينقسم الكتاب بين قصص قصيرة وقصص طويلة وحكايات للأطفال وقصص من التراث الشعبي، ومن حكايات الجآن، وحكايات للسينما وحكايتين مقتبسة من كتاب فرنسيين.

لا يوجد أجمل بعد أن تكتشف تولستوي المفكر بعد الاعترافات أن تتعرف على تولستوي الأديب عبر هذه المجموعة المذهلة. تولستوي ينزل من الأعلى، من الطبقة الراقية في أعماله الضخمة إلى الفلاحين والفقراء. إذا كانت الاعترافات هي الخط الفكري لتولستوي، فإن هذا الكتاب هو الخط الأدبي لهذه الاعترافات. جميع تساؤلات وحيرة تولستوي المطروحة في الاعترافات هي نفسها الموجودة في هذه القصص القصيرة المميزة. تولستوي موجود في بعض شخصيات هذه القصص، قصة اصطياد الدب ليست إلا مغامرة تعرض لها تولستوي نفسه عام 1858م، ثم بعد أكثر من عشرين سنة أقلع عن الصيد لأسباب إنسانية.

بشكل عام: لن أقول بأن القصص قد راقت لي أو لم تعجبني بعضها، بل سأقول وأنا على يقين بأن هذه المجموعة القصصية هي أجمل ما قرأت في فن القصة القصيرة على الإطلاق. الأفكار العامة في هذه القصص محصورة في الجوانب الأخلاقية والاجتماعية: السعادة العائلية والزوجية، الإيمان بالله، والبحث عن الله، والتحلي بأخلاق المسيح والسير على طريقه. أعتقد بأن بعض القراء سوف يرفضون أو يتحفظون على قراءة قصص مليئة بالوعظ الديني لديانة أخرى. أنا لم أجد ما هو مختلف في الوعظ القصصي لتولستوي بين الروح الدينية الإسلامية أو المسيحية. عناوين القصص بسيطة وتعطي تأويل محصور بالفكر الوعظي في قصص تولستوي مثل: سيروا في النور مادام لكم النور، الله يرى الحقيقة ولكن يتأنى، بم يحيا الإنسان، حيث تكن المحبة يكن الله، الشر يغري لكن الخير أبقى .. الخ. وفي مقدمات هذه القصص يقتبس تولستوي بعض الآيات من الإنجيل للتدليل على قضيته، وغالباً ما تكون هذه الآيات تدعو للخير والمحبة. قصة بما يحيا الإنسان مثلاً بدأت بست آيات من الإنجيل: وأما من كان له معيشة العالم، ونظر أخاه محتاجاً، وأغلق أحشاءه عنه، فكيف تثبت محبة الله فيه؟ لا نحب بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق .. الله محبة، ومن يثبت في المحبة يثبت في المحبة والله فيه .. إن قال أحد إني أحب الله، وأبغض أخاه، فهو كذاب، لأن من لا يحب أخاه الذي أبصره، كيف يقدر أن يحب الله الذي لا يبصره؟ .. الخ.

في قصة طريق النور يستخدم تولستوي أسلوب التوازي لإبداء المتناقضات، سعادة بمفيليوس وتعاسة يوليوس. في زمن أحد أباطرة روما الخمسة تراجان تجري حكاية هذه القصة في بداية صعود الديانة المسيحية. يوليوس في بداية القصة يطرح تساؤلات تولستوي في كتاب الاعترافات: من أنا؟ إنسان يبحث عن السعادة ولم يجدها. يعتزم يوليوس الذهاب إلى مكان مخصص للمسيحيين حيث يقيم فيه صديقه العزيز بمفيليوس للبحث عن أسباب السعادة، وفي كل مرة يريد الذهاب إليه يصطدم بأحد المثقفين الرومان، الذي يصده عن طريقه ويرده إلى الفكر الروماني والحضارة الرومانية بفنونها وعلومها. السعادة موجودة في هذه الحضارة وليس في مكان أغلب سكانه ينكرون الذات حسب تصور هذا المثقف! القصة تحمل فكر فني وفلسفي رفيع، من يقرأ أعمال تولستوي الكبيرة السابقة سيجد روح تولستوي الروائية بكثرة، خاصة بالحوارات الفكرية المميزة التي يتميز بها هذا الروسي.

قصة أخرى من القصص الشعبية أثارت إعجابي, وهي قصة بم يحيا الإنسان؟ هذه القصة عميقة جداً. أسلوب طرح القصة – وهذا هو الشيء المثير – بسيط جداً وواضح. القصة تدور في منزل سيمون الإسكافي. في طريق عودته يجد إنسان غريب جداً، يذهب هذا الغريب إلى منزل سيمون وتدور أحداث هذه القصة في منزل سيمون لست سنوات. هذا الرجل في الأخير لم يكن إلا ملاك عصى الله. كانت معصية هذا الملاك أن الله أرسله ليقبض روح امرأة مريضة، بعدما وضعت قبل ساعتين بنتين توأمين. لم يطع الملاك إرادة الله، فعاد إلى السماء وقد أثاره منظر الأم وهي تجذب أطفاله إليها. حينها، يؤُمر هذا الملاك بالعودة للأرض لقبض روح هذه المرأة، ولكي يتعلم ثلاثة حقائق عميقة: ماذا يسكن داخل الإنسان؟ وما لم يعطه الإنسان ؟ وبما يحيا الإنسان ؟

قصة أخرى مثيرة بفكرتها وبنيتها القصصية وهي قصة إيفان المغفل. إيفان رجل مغفل بكل ما تحمله الكلمة من معنى, طريق سعادته ونور حياته هي الفلاحة وعدم رد أي محتاج، أي محتاج أياً كان! يستطيع بفترة وجيزة أن يحكم مملكة كبيرة تضم أناس من أفكاره وشخصيته. إنه مثال للمسيح الروسي، يسير على خطى المسيح: باركوا لاعنيكم, صلوا لأجل أعدائكم ولأجل مضطهديكم، أحبوا من يبغضونكم، إذا لطمك أحد على خدك الأيمن فحول له الخد الآخر، فتكون كاملاً، وإذا أجبرك أحد على السير معه ميلاً واحداً فسر معه ميلين. هل يستطيع إيفان أن يتأقلم مع عالم فيه من الشر الكثير؟ هذا ما ستجيب عنه القصة المليئة بالإثارة والسخرية، حين يغزو أحد الملوك أرض إيفان، ينتصر إيفان رغم أنه لم يملك أي قطعة سلاح، يعلن عليه الشيطان الحرب وينتصر مرة أخرى بجنود لا يحملون أي قطعة سلاح، في مواجهة الحروب تجد هؤلاء المغفلين ينشدون الأناشيد الشعبية. القصة فيها سخرية حادة وذكية، من قرأ رواية الأبلة لدستويفسكي سيجد شخصية إيفان المغفل مشابهه جداً لشخصية الأمير ميتشكن، الرجل الطيب، المسيح الروسي حسب تصور دوستويفسكي.

**الإطلاع على أحاديث النبي (ص) من خلال كتابه " حكم النبي محمد".**

انحسرت موجة الاستعمار عن الوطن العربي و إن كانت بقاياه مازالت تلفظ أنفاسها الأخيرة. ومن بين الذين اعترفوا بما في تراثنا من قيم إنسانية أديب روسيا الشهير " تولستوي"، فهو واحد من العشرات ممن نوهوا بالحضارة العربية الإسلامية و تأثر بها و مما حملته من هدى و نور وخير و أصبحت الكتب تطبع بوفرة حول هذه الحضارة و تنوه ببناتها و تحاول أن تفكر عن عصور الجحود و النكران التي عملت على طمس معالم هذه الحضارة وفكرها وعطائها، وغذى ذلك كله بعض المستشرقين وبعض رجال الكنيسة في الماضي الطويل. وقد فوجئت بهذا الأديب الروسي العظيم ينوه بما ف الدانة الإسلامية من فكر و ظهر تعاطفا واضحا مع اطلع عليه من أحاديث الرسول محمد (ص) فألف كتابه: " حكم النبي محمد"[1] الذي نقله إلى العربية " سليم قبعين". و الكتاب أصلا هو ترجمة لأحادية نبوية عما يظهر من عنوانه ترجمها " تولستوي" من الإنجليزية إلى الروسية عن كتاب ألفه " عبد الله المهرودي".[2]

وترجع فيه أحاديث نبوية كثيرة فاختار منها " تولستوي" بعض ما ينتسب اتجاهه وفكره، ويقول متجرم الكتاب أن ما دفع الأديب الروسي إلى ترجمة هذه الأحاديث هو:" تعامل جمعيات المبشرين في قازن من أعمال روسيا، على الدين الإسلامي و نسبتها إلى صاحب الشريعة الإسلامية أمورا تنافي الحقيقة و تصور للروسيين تلك الديانة و أعمال صاحب تلك الشريعة بصورة غير صورتها الحقيقة، فهزته الغيرة على الحق إلى وضع رسالة صغيرة اختار فيها عدة أحاديث من أحاديث النبي محمد عليه السلام ذكرها بعد مقدمة جليلة الشأن واضحة البرهان وقال: هذه تعاليم صاحب الشريعة الإسلامية، و هي عبارة عن حكم عالية و مواعظ سامية

[1]- "حكم النبي محمد"، ترجمة سليم فتعين، الفيلسوف تولستوي، مطبعة التقدم، مصر 1912م.
[2]- حكم النبي محمد، المرجع نفسه.

تقود الإنسانية إلى سواء السبيل."[1] على أن المترجم لم يكتف بهذه الأحاديث التي ترجمها تولستوي بل ترجع شواهد كثيرة منها من أقوال بعض المفكرين ممن يعترف بعبقرية النبي محمد (ص) أو من يتحامل عليه و على الإسلام. وقد اهتم بأحوال المسلمين في روسيا في بداية هذا القرن من حيث واقعهم و ثقافتهم و عددهم و أعمالهم ومحافظتهم على الإسلام و اللغة العربية، حتى أن حفظ القرآن عم الكبار و الصغار، بل كانت الفتيات يتعلمن العربية إلى جانب الروسية و تفوقت في حفظ القرآن و تلاوته أمام الجمهور، كما عرض إلى نبوغ كثير من الكتاب المسلمين مثل "أحمد بك" الذي كان يرد على المطاعن التي يرددها الأوروبيون ضد الإسلام و المسلمين، أو يفند الترهات التي الصقوها بالرسول و شارك فيها الكتاب و الرسامون أمثال: شكسبير، وفولتير الذي التمس الغفران من البابا بواسطة تقديمه له رسالة الطعن المشهورة التي عنوانها محمد، وقد نسب بها إلى النبي محمد أمورا منكرة لم تخطر بباله و منافيه على خط مستقيم لروح تعاليمه و مبادئه..."[2] ثم يعرض المترجم إلى التغيير الذي طرأ على هذه العقلية المتعصبة بعد انتشار العلم و المنطق، و بعد أن انتشار العلم و المنطق، و بعد أن ساد التفكير العلمي المجرد، فاعترف كثير من الغربيين بمكانة الرسول و تعاليمه فأصبح: " ذلك المصلح العظيم الذي هز العالم بتعاليمه و مبادئه و أفكاره السامية"[3] ويسوق شواهد من اعترافات كتاب و علماء مثل المستشرق الانجليزي المعروف" ماكس مولري" أو مثل غيرهم من روسيا كما أنه عرب مقالات أخرى غير ما ذكرنا، ظهرت في الصحافة الروسية في تلك الفترة تشيد بالرسالة المحمدية و فيها تاريخ لها و لصاحبها مع شواهد من القرآن. و يتابع الكاتب طريقة فيعرض من خلال من ترجم لهم إلى قضايا كثيرة تتصل بالإسلام و المسلمين في روسيا أو في غيرها،

[1]- حكم النبي محمد، الفيلسوف تلوستوي، المرجع السابق، ص 2-3.
[2]- حكم النبي محمد، الفيلسوف تلوستوي، المرجع السابق، ص 26.
[3]- المرجع السابق، ص 29.

و يضـرب أمثلـة مـن أقـوال المستشـرقين ورجـال الـدين و غـيرهم حـتى يصـل إلى الأحاديـة الـتي ترجمهـا "تولسـتوي" كمـا سـبق القـول وقـد أشـرنا إلى أن " تولسـتوي" قـد قـدم لـذلك بنبـذة عـن صـاحب هـذه الأحاديـث و عـن الديانـة الإسـلامية الـتي دعـى إليهـا الرسـول محمـد، و تحـدث عـن المعتقـدات الـتي سـادت في الفـترة الـتي ظهـر فيهـا بالحجـاز، كمـا لخـص الأصـول البـارزة للديانـة الإسـلامية و عـرض لحيـاة النـبي و تقشـفه و صـبره و معاناتـه مـن أجـل نشـر الـدين الجديـد، و يبـدي نوعـا مـن التعـاطف تجـاه النـبي و صـحابته و ينـوه بالإسـلام و تعاليمـه الـتي تـدعو إلى احـترام الـديانات الأخـرى، و يوضـح التسـامح الـذي اشـتهر بـه المسـلمون، بـل إن الإسـلام امتـاز بـأمور بـاهرة منهـا أنـه أوصـى خـيرا بالمسـحيين و اليهـود و لا سـيما الأولـين مـنهم:" فقـد أمـر بحسـن معـاملتهم ومـؤازرتهم حـتى أبـاح هكـذا الـذين لأتباعـه بـالتزوج مـن المسـيحيات و اليهوديـات مـع الترخـيص لهـن بالقضـاء علـى ديـنهن، و لا يخفـى علـى أصـحاب البصـائر النـيرة مـا في هـذا مـن تسـاهل العظـيم[1] و بـالطبع فـإن تتفـق مـع عقيـدة هـذا الأديـب و مـع فكـره و موقفـه الإنسـاني المعـروف: " و ممـا لاريـب فيـه أن النـبي محمـدا مـن عظـام الرجـال المصـلحين الـذين خـدموا الهيئـة الاجتماعيـة خدمـة جليلـة و يكفيـه فخـرا أنـه هـدى أمـة برمتهـا إلى نـور الحـق و جعلهـا تجـنح للسـكينة و السـلام و تفضـل عيشـه الزهـد و منعهـا مـن سـفك الـدماء وتقـديم الضـحايا البشـرية، وفـتح لهـا طريـق الرقـي و المدنيـة، وهـو عمـل عظـيم لا يقـوم بـه إلا شـخص أوتـى قـوة، ورجـل مثـل هـذا جـدير بـالاحترام و الإكـرام.[2] إن هـذه الأفكـار الـتي تـأثر بهـا " تولسـتوي" و أثـرت فيـه و عـبر عنهـا في آرائـه هـذه المتصـلة بالإسـلام أو بـالنبي، إن هـذا الموقـف يلائـم مزاجـه و اتجاهـه الفلسـفي المعـروف بـالتطرف الأخلاقـي حـتى أنـه وزع أملاكـه في آخـر حياتـه وعـاش كالراهـب زاهـدا رافضـا لحيـاة المدينـة الماديـة الصـاخبة الـتي يكثـر فيهـا النـزاع حـول الامـتلاك و السـيطرة، ممـا دفعـه إلى المنـاداة بالـذوبان في الأخـرين بـل دفعـه

[1]- المرجع السابق، ص 8.
[2]- المرجع السابق، ص 58.

هذا إلى التعلق بالدين و الأخلاق و التسامي الروحي، ودفاعه عن المساكين و الفقراء وإيمانه بالعدل و العدالة. و من هنا نلاحظ عنايته في اختيار الأحاديث التي ترجمها، بالأخلاق و المثل خاصة تلك التي تعني بالحديث عن المحبة و الخير و الحق مثل: " قل الحق ولوكان مرا" أو مثل " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" أو " حفت الجنة بالمكاره و النار بالشهوات"، أو تلك الأحاديث التي تدعو إلى الرحمة و التآخي بين الناس: " ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"[1] أو التي تدعو إلى العطف على الفقراء أو إلى جهاد النفس أو التي ترفض الظلم... إلى غير هذا من الأحاديث النبوية الكثيرة التي تعني بالجانب الأخلاقي و تدعو إلى الفضيلة و تحث على فعل الخير و تشجب الشر، باختصار تلك الأحاديث الموجهة إل الإنسان عامة، لا إلى الفرد شأن الرسالة السماوية التي توجه إلى البشرية بقطع النظر عن اللون و الجنس و المعتقد. وهذه الأحاديث التي اختارها تولستوي تؤكد كما أسلفنا تأثره لما جاء فيها من دعوة إنسانية و مثل عليا، و هي كثيرة يمكن الرجوع إلى هذا الكتاب لمزيد من الاطلاع على ما فيها من معان و أفكار سامية حركت هذا الأديب ليترجمها لمواطنيه بلغتهم حتى يطلعوا على ما تذخر به من حكم و تعاليم شاملة.

و ليس غرضنا هنا تتبع هذه الأحاديث و شرحها فذلك خارج عن نطاقنا و لكننا أردنا أن نلفت النظر إلى أن الفكر العربي سواء جاء عن طريق الإسلام أو الرسول أو عن طريق المفكرين أو الكتاب كان له أثره في مجرى الثقافة الإنسانية، وتلك سمة بارزة في الفكر العربي منذ فجره حتى اليوم. وإذا كنا مطالبين بأنه نبحث عما من فكرنا و تراثنا من قيم مضيئة ونحذف ما فيه من أفكار سلبية، فإننا مطالبون أكثر بأن نسهم في حركة التاريخ و نضيف إليه عطاء متجددا كي نشارك في نهر الحضارة الإنسانية المتقدم.

[1]- المرجع السابق، ص 61.

**حكم النبي محمد (ص):**

في روسيا جمعيات عديدة دينية أنشئت لتبشير الأمم الإسلامية بالدين المسيحي؛ مثل قبائل الكيرجيز، والتتر، والشركس، وغيرها ويبلغ عدد المسلمين في روسيا وأوروبا نحو ستة عشر مليونًا ونصف، هذا عدا مسلمي القوقاس وأواسط آسيا الخاضعين للحكومة الروسية، وحسب آخر إحصاء عام أجري في روسيا عام 1907 بلغ عدد المسلمين 106 في الألف من مجموع السكان، وإذا راجعنا تاريخ المسلمين في روسيا نجد أنه مرت عليهم أزمان قاسوا فيها صنوف الاضطهاد الديني، وأرغموا مرارًا على ترك دينهم، واضطر منهم ألوف أن يتنصروا بالاسم، ونقلوا أسماءهم من سجلات المسلمين إلى سجلات المسيحيين، ولكنهم تنصروا اسمًا وهم لا يعرفون شيئًا من الديانة المسيحية سوى تسميتهم بحنا وبطرس ومرقص ومَتَّى، وفي الوقت نفسه لبثوا محافظين على عقائد الدين الإسلامي والأخلاق الإسلامية، ولبثت نساؤهم محافظة على الحجاب، وأذكر أنه منذ ثماني سنوات تمكن بعض نوابغ المسلمين الروسيين وأعيانهم من استصدار أمر قيصري بإعطاء الحرية للمسلمين المتنصرين اسمًا أن يرتدوا للدين الإسلامي؛ فارتد منهم في أيام قليلة نحو أربعين ألفًا ونيف، وكانت أيام الارتداد هذه أيام أعياد واحتفالات شائقة بين المسلمين؛ أقاموا فيها الزينات والولائم، ونحروا فيها الجُزُرَ، وأكثروا من الصدقات على الفقراء والمحتاجين، وأقاموا الصلاة في جميع مساجد روسيا.

وأهم مسألة يشتغل فيها النواب المسلمون في مجلس الدوما هي توسيع الحرية للمسلمين، وتخويلهم حق الدفاع عن دينهم كلامًا وكتابة، والرد على جماعة المبشرين الذين يصدرون في كل عام مئات من الكتب، ويكتبون في مجلاتهم وجرائدهم المطاعن على الدين الإسلامي، وكان المسلمون من قبل لا يصح لهم أن يردوا على تلك المطاعن أو يدحضوها بالبراهين الساطعة

والأدلــة الدامغــة؛ بــل كــانوا مــرغمين علــى سمــاع تلــك المطــاعن[1] أو يدحضــوها بــالبراهين الســاطعة والأدلــة الدامغــة؛ بــل كــانوا مــرغمين علــى سمــاع تلــك المطــاعن وهــم صــامتون، وقــد أحرجــت صــدورهم وتغلغــل الحقــد في قلــوبهم، ولكــن بعــد الجهــد والعنــاء اســتطاع النــواب المســلمون في مجلــس الــدوما بمســاعدة بعــض النــواب المســيحيين المنصــفين الــذين طهــرت قلــوبهم مــن أدران التعصــب الــذميم وأشــربت أفئــدتهم بحــب الإنصــاف ونشــر أولويــة المســاواة، مــن استصــدار قــرار مــن المجلــس المــذكور صادق عليه جلالة القيصر نقولا.

الثاني، يتضمن الأمور الآتية:

**أولًا:** مــنح المســلمين حــق الــدفاع عــن ديــنهم، والــرد علــى أقــوال المبشــرين وغــيرهم مــن الــذين يطعنــون على الدين الإسلامي.

**ثانيًــا:** مــنحهم الحــق في إصــدار جرائــد ومجــلات باللغــة العربيــة، وكــانوا مــن قبــل لا يســتطيعون إصــدار جريدة أو مجلة إلا باللغتين: الروسية، والتترية.

**ثالثًا:** منحهم الحق في إنشاء مدارس وكتاتيب بجوار المساجد تعلم العلوم باللغتين:

التركية، والعربية؛ وكانوا من قبل مجبورين على تدريس اللغة الروسية في مدارسهم.

**رابعًا:** تخويلهم الحق في تعيين الأئمة ورجال الدين من أشخاص يعرفون اللغتين:

[1]- سليم قبعين المرجع السابق، ص 44

التترية، والعربية؛ وكانت الحكومة من قبل لا تسمح بتعيين المسلمين في الوظائف الدينية إلا إذا كانوا يجيدون اللغة الروسية، وأمثال هؤلاء قليلون بين رجال الدين المسلمين؛ ولذلك كانت الحكومة تعين رجالًا جهلاء في الدين، وتهمل المستحقين؛ لعدم معرفتهم اللغة الروسية.[1]

خامسًا: تخويلهم حق إدارة مدارسهم الدينية وأوقافها، وكانت — من قبل — هذه المدارسُ تديرها وزارة المعارف الروسية.

**سادسًا:** منع المسلمين من الإتجار ببيع المشروبات الروحية.

**سابعًا:** منع المسلمات من إنشاء مواخير للفساد وإدارتها.

**ثامنًا:** إعطاء المسلمين الحرية في قفل مخازنهم ومحلات متاجرهم يوم الجمعة، وعدم إرغامهم على قفلها يوم الأحد.

**تاسعًا:** تعيين أئمة من الجيش للقيام بخدمة الجنود المسلمين الدينية.

**عاشرًا:** تقديم مأكولات للجنود المسلمين ليس فيها طعام محرم في الدين الإسلامي.

**حادي عشر:** منح المسلمين الحرية في إنشاء الجمعيات الخيرية، والنوادي الأدبية العلمية؛

لتعمل على ترقية المسلمين ماديًا وأدبيًا.

وبعد صدور الأمر القيصري بالتصديق على هذا القرار انشرحت صدور المسلمين في روسيا، وتنسموا رائحة الحرية التي ساعدتهم على السير في طريق الرقي الأدبي؛ فأنشأوا الجرائد العديدة بلغتهم العربية؛ فأصبح عندهم نحو مائتي جريدة ومجلة:

[1]- سليم قبعين المرجع السابق ص 47

سياسية، وأدبية، وتاريخية، ودينية، بعد أن كانت جرائدهم قليلة العدد جدًّا، وألغى كثيرون القسم الروسي من جرائدهم، وأنشأوا أيضًا كثيرًا من الجمعيات الخيرية والأدبية والمدارس العديدة، وأصبحوا يرفلون في رياض الحرية.

على أن كثيرين من كتابهم الفضلاء ما زالوا يشكون من جمود المسلمين في روسيا، وتمسكهم بعقائد وتقاليد قديمة، وأنه يلزمهم وقت طويل لمجاراة الأمم الغربية في مضمار الحياة، وإقبالهم على تعلم العلوم العالية، وكثيرون من أولئك الكتاب الأفاضل أخذوا يؤلفون الكتب، ويكتبون المقالات في الجرائد والمجلات؛ يحثون بها أبناء دينهم على طرح نير الجمود والاستكانة، ويرشدونهم إلى طريق الرقي، وبوجه الإجمال فإن مسلمي روسيا نهضوا في هذه الأيام نهضة شريفة تبشر بحسن الاستقبال وخير المآل، إن لبثوا سائرين على محور الهمة والنشاط حقق لله آمالهم.[1]

على أن الحكومة الروسية من قديم الزمان كانت وما زالت ولن تزال عاملة على معاملة المسلمين في بلادها بالحسنى، ومنحتهم كثيرًا من الحقوق لم تمنحها لغيرهم من الأمم المستظلة بالراية الروسية، ولا عجب في ذلك؛ فإن المسلمين في روسيا أظهروا في حوادث كثيرة على أنهم من أشد الناس إخلاصًا لحكومتهم، وطالما دافعوا عنها بنفوسهم وأموالهم، واشتهرت الجنود الإسلامية في الجيش الروسي بالبسالة والإقدام والدفاع عن حقوق الوطن، وقد عرف فيهم ذلك قياصرة روسيا فاختاروا حرسهم الخاص منهم، ومنحوهم حقوقًا عديدة.

والحكومة الروسية من قديم الزمان تحافظ على شعور المسلمين الديني، وتعاملهم في الحقوق المدنية بحسب الشريعة الإسلامية، وقد نشرت في العدد 3605 من جريدة الشريعة » المؤيد الصادرة يوم الاثنين الموافق 10 مارس سنة 1902 مقالة تحت عنوان وجدْتُ إظهارًا للحقيقة أن أنشرها

[1]- سليم قبعين المرجع السابق ص 48

هنا، وهي معربة عن « الإسلامية في المحاكم الروسية جريدة نوفويه فريميا أشهر الجرائد الروسية، ولسان حال وزارة الخارجية الروسية، وها هي بنصفها وفصها:

لا توجد مقاطعة في أنحاء المعمورة تقضى فيها حقوق أهاليها بشأن الإرث حسب نصوص شريعة الديانة المتدين بها أهل تلك المقاطعة الخاضعون لمملكة متدينة بدين يخالف دينهم، يخالف دينهم، ففي الجزائر والهند تستعمل محاكمها الشريعة الإسلامية في قضايا الوطنيين الأصليين فقط، وأما في سائر أنحاء فرنسا وإنجلترا فإن المسلمين يرثون حسب نظام قانون نابليون، والقوانين المدنية للبلاد التي يقيمون بها، غير أن روسيا شذت عن هذه الطريقة ففيها وحدها يرث المسلمون حسب نصوص الشريعة الإسلامية، وقضاة محاكمها مأمورون بالسير على تلك الشريعة المرعية في محاكمنا من عهد بعيد، ومصرحة في البند 1338 وما بعده من بنود المجلد العاشر من القانون المدني، ومشروحة شرحًا واضحًا لا يدع أثرًا للريب في النفوس.

ومع ذلك فإني أقول: لقد حان لحكومتنا أن توجه التفاتها إلى الصعوبات التي تنجم عن استعمال تلك الشريعة التي لا يبررها بند القانون القائل باستعمالها بالنظر لعدم مطابقتها للعقل.

ولقد ظهر من آخر إحصاء أن نسبة عدد المسلمين 11 في المائة من جميع الأهالي الروس، 1 منهم ثلاثة في المائة من مسلمي أوروبا بروسية، والباقون في أملاك روسيا في آسيا، ثم إنه في بعض ولايات روسيا يكثر عدد المسلمين حتى إنه يبلغ عدد نصف الأهالي؛ كولاية أوفا، وفي بعضها يقل عددهم.

ففي قضايا ميراث ومخاصمات المسلمين تسير المحاكم الروسية حسب نصوص الشريعة المحمدية، وذلك مما يدعونا إلى إنعام النظر في هذا الأمر.

إن المسلمين القاطنين في روسيا وأوروبا يخضعون دينًا لرئيسين روحيين عظيمين:

أحدهما يقيم في ولاية القرم، والثاني في ولاية أورنبرج، وأما مسلمو القفقاس فينقسمون إلى قسمين: سنية، وشيعية؛ يقيم رئيساهما في مدينة تفليس عاصمة تلك البلاد، ورؤساء الدين هؤلاء يقضون في مصالح المسلمين؛ من زواجهم، وأحكام دينهم، وإرثهم، وإنما في قضايا الإرث يكونون كوسطاء للتراضي والصلح بين الورثة، وإذا لم يستطيعوا ذلك فالورثة يترافعون أمام المحاكم الروسية التي تحكم لهم حسب نصوص الشريعة الإسلامية كما قدمنا، وإذا أجلنا الطرف في هذا النظام المطابق لنصوص المجلد العاشر بخصوص إرث المسلمين فلا يبقى في نفوسنا ريب أن هؤلاء يترافعون في مسائلهم الدينية لدى أئمتهم الذين يؤلفون محكمة لا يقبل حكمها النقض والإبرام، وأما في القضايا العامة — وعلى الأخص قضايا الإرث — فإنهم يترافعون أمام المحاكم الروسية التي تقضيلهم أيضًا حسب نصوص شريعتهم المرعية الإجراء، والموضوعة بين بنود قوانيننا الخاصة بالمسلمين، وعليها ذيول شتى بخصوص إرث المسلمات لأزواجهن، وهنا نورد في قضايا إرث المسلمين » : نص الفقرة الأخيرة من قانوننا الذي يصرح بذلك في قوله وكذلك في جميع قضاياهم العامة ينبغي على القضاة الروس أن يسيروا طبقًا لنصوص الشريعة الإسلامية، ولا أدري لماذا تفضل حكومتنا المسلمين على اليهود من رعاياها مع أن تلمودهم يتضمن شرائع مختلفة ونواميس متعددة لجميع ظروف وأحوال اليهود المدنية والدينية، وإذا فرضنا بأن ذلك التفضيل ناجم عن حصول المسلمين عندنا على حقوق وامتيازات أكثر من اليهود، وأن شرائع التلمود غير وافية أو تامة كالشريعة المحمدية؛ فإنه كان يمكننا الوقوف عند هذا الحد في الكلام، ونرضى بسير الأحكام التي ذكرناها على محورها ومجراها، غير أن محاكمنا لحد الآن لم تتمكن من السير على قاعدة معلومة محدودة؛ لكي تقوم بما عهد إليها من الواجب الملقى على عاتقها؛ ذلك لأن قوانين

الشريعة الإسلامية غير مرتبة الوضع، ومن جهة أخرى فإنه لا توجد في بنود نظاماتنا صراحة ترشد القضاة إلى طريقة معلومة ليسيروا بموجبها، وتلك النظامات الإسلامية المعروفة بالشريعة تؤلف مجموعة أجوبة مختلفة لأسئلة متعددة بخصوص الحقوق والأحكام، قد وضعها ألوف من المتشرعين المسلمين، وكلهم من رجال الدين الذين وضعوها باللغة العربية طبقًا لأحكام القرآن ونصوصه، وقد اجتمع من هذه القواعد والأجوبة منذ ظهور الإسلام حتى يومنا هذا عدد لا يحصيه حاسب، وقد اجتهد علماء العرب في جمع شتات قواعد تلك الشرائع في مجموعات خاصة؛ بقصد نشرها، وتسهيل وجودها، والرجوع إليها عند مسيس الحاجة، وترجم أكثر هذه الكتب إلى اللغتين: الفرنسية، والإنكليزية؛ وإنما لم يترجم منها إلى اللغة الروسية سوى الكتب الآتية:

**أولًا:** مجموعة عقائد الشيعيين وشرائعهم ترجمة الأستاذ ميرزا قاسم بك في عامي 1862 و 1863.

**ثانيًا:** كتاب شريعة السنيين ترجمة غورديكوني عام 1893 تحت اسم الهداية.

**ثالثًا:** نظام إرث المسلمين ترجمة العالم موخين عام 1898 . وهذه الكتب الثلاثة نافعة جدًّا لدرس الشريعة الإسلامية.

ثم إنه كما أشرنا آنفًا بأن بنود المجلد العاشر من النظام المدني الروسي لا تصرح للمحاكم الروسية صراحة تامة بالاستناد على نظام إسلامي معروف أو مترجم للغة الروسية؛ ولذلك كان القضاة في أكثر القضايا يقعون في أشد الارتباك، ولا يجدون لهم مخرجًا من تلك الحالة الحرجة سوى الكتابة إلى أئمة المسلمين يسألونهم حل مشكل تلك القضية فيجاوبونهم عليها بذكر فقرة

الشريعة الموافقة لحل تلك القضية حلًّا صحيحًا عادلًا حتى يبنوا حكمهم عليها، ولكن شوهد كثيرًا بأن تلك الفقرات المرسلة من رجال مختلفين لحل قضية واحدة تناقض الواحدة الأخرى، وعدا ذلك فإن نظام الإرث واسع جدًّا، وهو أعقد فصول الشريعة، ولذا جعل علمًا مستقلًّا لا يدركه إلا بعض أئمة المسلمين الذين يسمون القسام، والقضاة الروسيون يصعب عليهم درس هذا العلم الواسع، أو درس الشريعة الإسلامية؛ لجهلهم اللغة العربية الموضوعة بها.

ثم إنه لا يتسنى لإحدى المحاكم أن تصدر حكمًا بإرث ولم يرضخ له المترافعون الورثة ورفعوه إلى محكمة أعلى، فربما نقضت هذه المحكمة بعض الحكم الابتدائي؛ استنادًا على فتاوى أئمة المسلمين الموجودين بالقرب منها، وبذلك تخالف الحكم الأول الذي أصدرته المحكمة الابتدائية؛ طبقًا لفتاوى أئمة المسلمين الذين أفتوا لها بتلك الفتوى، وكانت فتواهم مخالفة لفتوى الآخرين، وكثيرًا ما تصل تلك القضايا إلى مجلس الشيوخ الذي لا يجد أيضًا إلى حلها سبيلًا سوى الاستناد على فتاوى الأئمة، وبالاختصار؛ فإن قضايا إرث المسلمين وغيرها تسبب لمحاكمنا ارتباكًا عظيمًا هي في غنًى عنه، وينجم أكثره من عدم معرفة قضاتنا الشريعة الإسلامية، وأنى لهم ذلك؟!

ثم استطرد الكاتب كلامه فقال: ولقد طالعت مقالة في مجلة وزارة الأديان بهذا الشأن ذيلها كاتبها بعدة آراء، إذا سارت عليها حكومتنا تخلصت من تلك الحالة الحرجة، ولإتمام الفائدة أذكر تلك الآراء:

**أولًا**: ينبغي أن يضاف إلى نموذج مدارس القضاة الحقوقية درس الشريعة الإسلامية حسب الطريقتين: السنية، والشيعية؛ وعلم الإرث.[1]

[1]- سليم قبعين المرجع السابق ص 49

## 1-التنويه بالحضارة العربية.

من مرحلة الوعي بالذات تبحث الأمة من أصالتها و تسعى إلى اكتشاف ذاتها ووجودها، وتفتش عن جوهرها و ما قدمته و تقدمه للإنسانية من عطاء، و ما أسهمت به جهد حضاري أفاد البشرية وأثري قيمها ونراثها وفكرها وثقافها. وأعتد أن الأمة العربية في المرحلة الراهنة تحاول أن تعي ذاتها من خلال تاريخها و من خلال ما تركته من أثر في الآخرين. ثم إنها تعمل على صياغة هذا الوعي لتحقق أملها في المستقبل و تحقق وحدتها ومصيرها الواحد الذي تصبو إليه باستمرار في حين أنها في فترة مضت عانت نعيش متأثرة تقارن بين ما لديها و ما لدى الغير حتى أوشكت أن تنسى أنها في يوم من الأيام كانت الرائدة في ميادين كثيرة. ولعل هذا الاستلاب الذي عاشته أمتنا و مازال يعيشه العض من يرجع إلى التخلف الذي امتد قرونا طويلة، وزاد من استمراره عوامل كثيرة في مقدمها الاستعمار الغاشم الذي ابتليت به الأمة العربية، كذلك تلك الفتنة من المفكرين و الكتاب الذين لم يروا في تاريخ أمتهم ما يهرهم و إنما الذي أغشى عيونهم ما رأوه في الغرب من ثقافة و تقدم حضاري و ما اطلعوا عليه من نماذج متفردة في الآداب و الفن و الثقافة بل العلوم و المخترعات الحديثة و من هنا رأينا هذا الرهد من المثقفين.[1]

في ظل الحضارة الغربية يتهيأ ظلالها مستريحا من عناء البحث في الجذور مستسلما إلى الحذر الذي ملك عليه عقله و لبه وعواطفه دون أن يكلف نفسه جهدا في مراجعة أحكامه وآرائه حول الثقافة التي ينتسب إليها و الحضارة التي ينتمي إلى فكرها وماضيها و تاريخها وربما كان هذا من بين الدوافع التي جعلت مجلة " المعرفة" تصدر عددا خاصا يتناول و أثر الفكر العربي و الحضارة العربية في الفكر الانساني، و هذه التفاتة طيبة من المجلة تسهم بها في التعريف بدور

[1]- ابراهيم السعافين، ملامح التأثير الغربي في الأدب العربي الحديث، منشورات وزارة الإعلام، بغداد 1980.

الثقافة العربية في تعميق وعي الانسان، وفي بيان مدى تأثر البشرية بما في هذه الحضارة من قيم و خير و نبل و مثل سامية. و لا يعني هذا دعوة إلى النفي بالماضي و أمجاده و الانكفاء على الذات، أو الاكتفاء بما تحقق في هذا الماضي، ولكنه يعني أن الأوان قد آن لنبحث عن التوازن في أنفسنا و في واقعنا بدر الهروب إلى الأمام أو النكوص إلى الوراء، أن الأوان لكي نخضع مركب النقص في نفوسنا و أن تنظر إلى العالم من حولنا نظرة أخرى غير التي كنا ننظر بها إليه، تنقد الماضي و لا نلعنه، تعمل على تغيير الحاضر بما يحقق أحلام و آمال المستقبل و الواقع أن العالم قد تنبه إلى ما في فكرنا من ثراء منذ زمن طويل و بدأ يعترف بدورنا الحضاري بعد أن خف التعصب ضدنا نسبيا.[1]

[1]- ابراهيم السعافين، المرجع السابق، ص 09.

## 2-الرسول الكريم في عيون تولستوي.

إن شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم واحد من الشخصيات الملهمة و الفاعلة في تاريخ الإنسانية، و مثلما تأثر وانفعل الذين آمنوا برسالته كذلك تأثر الذين لم يؤمنوا به بل و الذين نواؤه " كالوليد بن المغيرة المخزومي مثقف العرب وحكيمهم الذي عاش ومات على الكفر: قال إنه لقوله لحلاوة و إن عليه لطلاوة و أن أعلاه لمثمر و أسفله لمغدف و أنه يعلو و لا يعلى عليه، و أمية بن أبي الصلة الثقفي هذا المثقف الكبير و الشاعر الذي اطلع على تاريخ الأديان و الأمم وفق مبهور أمام عظمة الرسول حين التقاه في مكة، حيث راح النبي ينظر إليه و يقرأ عليه سورة (يس) فقيل له ما تقول في محمد؟ قال أنه نبي وعظيم ولكن قلبي لا يطاوعني فيه. و مثلما كان النبي ملهما لمعاصريه كان ملهما ومعلما لمن اطلع على سيرته ونهجه من المسلمين و غير المسلمين. كثيرون أولئك الذين وقفوا مبهورين أمام عظمة هذه شخصية العملاقة منذ أن أشرق نوره حتى يومنا هذا إلا أن مع الأسف أن من يحاول تشويه صورة النبي الناصعة أولئك المحسوبون على الإسلام المدفوعين من الحاقدين عليه. [1]

إن المرء ليعجب حينما يسمع و يرى التهجم على نبي الإنسانية من ثلة من الغربيين جاهلة بالقيم وجاهلة بالمعرفة ومظلة من قبل الحاقدين ولكن الحق ينطق على لسان المنصفين و المثقفين منهم وفي الوقت ذاته فإن قول هؤلاء المثقفين هو الدليل الذي يلجم الأفواه و الأقلام التي تصف الرسول الكريم بأنه نبي الحرب والدم".

[1]- أبو الحسن علي الحسني الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين و الباحثين المسلمين كمؤسسة الرسالة، بيروت ط3، 1986، ص15.

ليس كل الغربيين كما يعتقد البعض من المتعصبين ضد الإسلام ورسول الإنسانية بل إن كثيرا من مثقفيهم وكتابهم الكبار الذين نظروا بعين الأنصاف عرفوا قدر الإسلام و أشادوا بصفات الرسول الأكرم ودفعوا عنه بنزاهة و موضوعية و اعترفوا أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم جاء بالرسالة العظيمة لقيادة البشرية نحو الخير و الحق. ورغم الكلمة الشرسة ضد الإسلام ورسوله فإن عالما كبيرا مثل العالم النفساني و الاجتماعي الفرنسي المعروف جوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب يؤكد أن محمدا رغم ما يشاع عنه من قبل خصومه ومخالفيه في أوروبا إلا أن الحقيقة التي لا مراد فيها أنه أظهر الحلم العظيم و الرحابة الفسيحة، ويقول الأديب الفرنسي ألفونس لا مارتين: إن محمد أقل من الإله و أعظم من الإنسان العادي أي أنه نبي. وكان الأديب الايرلندي برنارد شوهر الآخر منفعلا بشخصية النبي محمد إذ قال: إن من الأنصاف أن يدعى محمد منقد الإنسانية و أعتقد أن رجلا مثله لو تولى زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته و أحل فيه السعادة و السلام، و لعل قول الكاتب الأمريكي مايكل هارت في كتابه ( العظماء مائة وأعظمهم محمد) قول في غاية الانصاف و الدقة إذ يقول " حين سئل عن اختياره و معهم حق في ذلك و لكن محمدا هو انسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحا مطلقا على المستويين الديني و الدنيوي، و هو دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات. وأصبح قائدا سياسيا وعسكريا ودينيا وبعد (13) قرنا من وفاته فإن أثر محمد مازال قويا و متجددا. أما عملاق الأدب الروسي و المصلح الاجتماعي و المفكر الأخلاقي ( ليو تولستوي) و الذي يعده البعض أعظم الروائيين على الإطلاق بفضل أعماله عظيمة خطها ببراعة مثل، "الحرب و السلام" و " أنا كرانينا" فله كذلك كتاب عن الرسول صلى الله عليه ويلم موسم

تحت عنوان حكم النبي محمد وقبل أن أعرض الكتاب وددت أنقل مقدمة متجرمة[1] الكتاب إذ يقول فيها بعد اطلاعي على رسالة الأديب الروسي لتولستوي عن الإسلام وعن النبي محمد مالني ما جاء فيها من الحقائق الباهرة فدفعتني الغيرة على الحق إلى ترجمتها إلى العربية، علما أن متجرم الكتاب ( سليم قبعين) هو مسيحي لبناني. يصف تولستوي النبي محمد في كتابه ( حكم النبي محمد) قائلا: هو مؤسس دين و نبي الإسلام الذي يدين به أكثر من مائتي مليون إنسان ( الكلام عام 1912م) قام بعمل عظيم بهدايته و اثنين قضوا حياتهم في الحروب و سفك الدماء، فأنار أبصارهم بنور الإيمان و أعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله. ثم في فصل آخر من كتابه و تحت عنوان (من كان محمد)، يقول من أراد أن يتحقق مما عليه الدين الإسلامي من التسامح فليس له سوى أن يطالع القرآن الكريم بإمعان و تدبر فقد جاء في آياته ما يدل غبى روح الدين الإسلامي السامية منها ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾.[2] ويقول:" لقد تحمل في سنوات دعوته الأولى كثيرا من اضطهاد أصحاب الديانة الوثنية القديمة و غيرها شأن كل نبي قلبه فادى أمته إلى الحق و لكن هذه المحن لم تثن عزمه بل ثابر على دعوة أمته مع أن محمدا لم يقل إنه نبي الله الوحيد بل آمن أيضا بنبوة موسى و المسيح و دعا قومه إلى هذا الاعتقاد و أيضا وقال إن اليهود و النصارى لا ينبغي أن يكرهوا على ترك دينهم بل يجب عليهم أن يتبعوا وصايا أنبيائهم. ويقول تولستوي أيضا و مما لاريب فيه أن النبي محمد كان من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة و يكفيه فخرا أنه هدى أمة بأكملها على نور الحق وجعلها تجنح إلى السكينة و السلام و تؤثر

[1]- المرجع نفسه، ص16-17.
[2]-القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 103.

عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقي و المدينة و هذا عمل عظيم لا يقوم به شخص مهما أوتي من قوة ورجا". [1]

مثل هذا جدير بالاحترام و الإجلال كما اختار تولستوي مجموعة من أحاديث الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) بلغت 64 حديثا، وضمنها كتابه ومنها:

- لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.
- ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.
- إن الله عز وجل يحب أن يرى عبده ساعيا في طلب الحلال.

في نهاية هذا العرض أقوال إن أهمية هذا الكاتب تمكن في أنه من الكتب النادرة الذي طبع قبل 90 عاما و هو كتاب غير معروف لدى الكثير من قراء العربية و هو في الوقت نفسه ينصف الإسلام ونبيه الكريم ويدعوا الآخرين إن إنصافه، و الكتاب في النتيجة النهائية هو وثيقة تاريخية لصالح الإسلام و المسلمين.

[1]- مرجع نفسه، أبو الحسن علي الحسني الندوي، ص20.

# الـملحـق

**من هو تولستوي**

هو نيقولا يفتشي تولستوي (1928-1910) روائي وكاتب روسي من عمالقة الروائيين الروس و من أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر و البعض يعدونه من أعظم الروائيين على الإطلاق.

ولد تولستوي في عائلة كبيرة تنتمي إلى النبلاء الروس و كانت لهم أراضي واسعة ككل الإقطاعيين في هذا الزمان و كان أبوه يحمل لقب " كونت" أما أمه فكانت من طبقة الأمراء و هذا يعني أنه كان من أصل عالي المستوى في روسيا بل يجيء في المرتبة التالية للعائلة المالكة.

يعد تولستوي من أكبر المصلحين الاجتماعيين في التاريخ وداعية سلام و مفكر و فيلسوف، أشهر أعماله روايتي" الحرب و السلام" و "أنا كارنينا" وهما يتربعان على قمة الأدب الواقعي، فهما يعطيان صورة واقعية للحياة الروسية في تلك الحقبة الزمنية.[1]

آمن تولستوي بأهمية العلم لإصلاح الأمم فأقدم في التاسع عشرة من عمره على تنظيم مدرسة في قريته " ياسنايا بوليانا" وقد استفاد من سفره الطويل إلى ألمانيا و فرنسا و سويسرا و إيطاليا في دراسة المؤسسات التربوية فيها إلى جانب دراسة أدبها و فنونها و قد ألف كتابا سماه " الأبجدية" صدر عام 1872 الذي صار حدثا عظيم الأثر في التعليم الروسي.

[1]- حياة تولستوي "تولستوي" شبكة الأنترنت www.goodreads.com/authorshould/3103906.

طور تولستوي "أبجديته" حتى أقرت الدولة "أبجديته" في جميع مدارس الدولة، ودرس تولستوي الأدب العربي في كلية اللغات الشرقية ( قسم اللغتين التركية و العربية) بجامعة قازان و قد اهتم الأدباء العرب بتولستوي و إبداعاته حتى نعاه كثير من الشعراء و الأدباء العرب ومصطفى لطفي المنفلوطي.

**نبذة عن حياة الكاتب ليون تولستوي.**

هو مفكر أخلاقي و مصلح اجتماعي وداعية سلام، كان تولستوي روائيا و مصلحا، اجتماعيا وداعية سلام و مفكر أخلاقيا و عضوا مؤثرا في أسرة تولستوي أشهر أعماله روايتي " الحرب والسلام" و "أنا كارنينا" و هما يتربعان على قمة الأدب الواقعي، فهما يعطيان صورة واقعية للحياة الروسية في تلك الحقبة الزمنية.

لقد أضمر الكاتب الروسي احتراما خاصا للأدب العربي، والثقافة العربية و الأدب الشعبي العربي. فعرف الحكايات العربية منذ طفولته، عرف حكاية " علاء الدين و المصباح السحري" وقرأ " ألف ليلة و ليلة".

# الخاتمة

من خلال هذا البحث استخلصت أهم الأفكار وهي كالتالي:

الفيلسوف تولستوي واحد من عمالقة و أعمرت ق19. بل يعتبر الفيلسوف الأكثر اهتماما بالإسلام والمسلمون لم يكن مجرد فيلسوف وأديب بل هو مصلح اجتماعي ومفكر أخلاقي أو صلة حكمته إلى التمييز بين ما هو حقيقي و ما هو مزيف، بل أستطيع أن أقول بأن الأدب بالنسبة له عبارة عن أداة للتحليل النفسي وللبحث عن الذات و التفكير في أسباب الصراع الأدبي في نفس البشرية بين مبادئه الأخلاقية واستسلامها في عالم الشهوات المادة المضادة للمثل العليا.

في الأخير إنني أعتبر ما قام به تولستوي ما هو إلا جزئية بسيطة في ختم البحث عن حقيقة ديننا وبدورنا فإننا نسلط الضوء على الدور المحوري الذي يجب أن يقوم به كل فرد في مجاله، بل علينا أن نسعى لبناء جسر من التواصل مع الغرب، لنقل صورة حقيقته عن نقاء هذا الدين ومخاطبة العقل هي الطريقة الأكثر اقناعا و لنا في سيرته العطرة من الحجج و البراهين ما يكفي لتصحيح مفاهيم مخلوطة، كما أننا يجب أن نوصي الجيل الجديد بأخلاقيات سامحة، ولا يأتي هذا إلا بخطاب ديني عصري.

# قائمة المصادر و المراجع


- القرآن الكريم سورة آل عمران الآية 103.
- تولستوي "حكم النبي محمد" ترجمة سليم قبعين- مطبعة التقدم- مصر 1912م.

**المراجع:**

1. مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي د. مكارم.
2. نجم عبد الله كاظم تولستوي و التأثير العربي في الأدب الروسي عمان 1994.
3. حكمت الأوسي التأثير العربي في الثقافة الروسية بغداد 1884.
4. الأدب الروسي د.محمد حمود ط1 1429-2008م، ص41.
5. سيقند " تولستوي و الشرق" موسكو 1981.
6. لمحات من الأدب الروسي ماهر- نسيم اقرأ- دار المعارف بمصر 1958.
7. في الأدب المقارن مقدمات للتطبيق، الدكتور نجم عبد الله كاظم ط1 1429-2008م.
8. أبو الحسن علي الحسني الندوي- الإسلاميات بين كتابات المستشرقين و الباحثين المسلمين مؤسسة الرسالة، بيروت 1986ط3.
9. أحمد عبد الحافظ الفواز، المسلمون في روسيا ما بين الإرث التاريخي و الإشكاليات المعاصرة، مصر، ط1، 2000م.
10. باسم الخفاجي، الأصول الفكرية لموقف الغرب من نبي الإسلام، المركز العربي للدراسات الإنسانية الرياض 2006.
11. حياة شرارة " تولستوي" المؤسسة الجامعة للدراسات و النشر ط1، 2004.
12. سليم قبعين، مذب تولستوي، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، ط1، 2012.
13.

**المجلات:**

1. مجلة المعرفة " الأدب العربي في الآداب الأجنبية"، العددان 191-193 كانون الثاني- شباط 1978.
2. ابراهيم السقافين- ملامح التأثير الغربي في الأدب العربي الحديث منشورات وزارة الإعلام، بغداد 1980.

**شبكة الأنترنت:**

حياة تولستوي "تولستوي" شبكة الأنترنت **www.goodreads.com/authorshould/310390**